القرن الثالث

1 – الواثـــق بـــالله

2 – الخـــــوارزمي

3 – الإمـام أحمـد بـن حنبـل

4 – الإمــام البخــاري

5 – الكنــــدي

6 – الإمــام مــسلم

7 – أبـــو بكـــر الـــرازي

8 – ابـــن ســـريج

9 – الطـــــبري

3

obeikandl.com

obeikandl.com

هذا القــرن

وتبدأ السنة الأولى من المائة الثالثة الهجرية يوم الأربعاء ٣٠ يوليو عام ٨١٦ م بـما تحدثنا عنه كتب التاريخ من : أن المسلمين في هذا القرن كانوا من أكبر دول العالم قوة ومنعة.. علما وثقافة.. عملا وحضارة.. رغم ما اعتراهم مـن ضـعف وتمـزق بفعـل توالي النكسات والفتن. لكن هذا الـضعف الـذي بـدأ في هـذا القـرن عـلى الدولـة الإسلامية قد غطاه وجود مناطق قوية عـلى أطرافهـا ، فكانـت دولـة بنـي طـاهر في خراسان حامية للإسلام في الطرف الشرقي، وكانت دولة ابن طولون في مصر حامية له في الطرف الغربي.. إلى جانب ذلك ، فبنو أمية شغلوا بالفتح الإسلامي للأندلس، ولعل انشغالهم في هذا العمل قد حقق هدفين أولهـما : تخفيـف حـدة الـصراع بيـنهم وبين بني العباس، وثانيهما : فتح عـوالم جديـدة في الأنـدلس وغيرهـا مـن البلـدان الأوروبية ، وإقامة حضارة عربية إسلامية قامت عـلى أساسـها الحـضارة الأوروبيـة الحديثة.ولذلك يلحظ المتابع لسير الأحداث في هذا القـرن : أنـه إذا كانـت عوامـل الضعف والتمزق المتوارثة من القرنين : الأول والثاني قد دبت ، ففي المقابـل كانـت هناك عوامل قوة تتركز في المحافظة على ثقافة الأمـة ونهـضتها. تلـك التـي صـنعتها عقول أبنائها ، فيبدو الحفاظ على هذه النهضة واضحا بواسطة ملوك بنـي العبـاس ، وفي مقدمتهم : الواثق بالله ذلك الخليفة المحب للعلم والعلـماء ، الـشغوف بالثقافـة والفنون. حتى قيل عنه إنه يعيد أمجاد الدولة الإسلامية التي تحققت في عصر كل من هارون الرشيد والمأمون . ولذلك لقبوه بالمأمون الصغير.

كذلك ظهر في حلبة الصراع – خلال ذلك القرن – عنصر ثالث متمثل في الأتراك الذين وجدوا بسبب كون أم عاصم : (أحد خلفاء بني العباس) كانت تركية الأصل، وكان من الطبيعي أن يتولوا حراسة قصرها وأن يشغلوا أكبر المناصب. وأن يكثر عددهم حتى يصل إلى خمسين ألفا.. كذلك بدأ نفوذ الصوفية. وإلى آخر هذه الفئات التي يحدث فيما بينها خلافات لا تنقطع ، وتشغل الراعي والرعية ، وتجعل الدولة في حالة مستمرة من القلاقل والتوترات . وبديهي أن وجود مثل هذه الخلافات بين فئات الأمة يتطلب وجود مجدد يسمو على كل ما يحدث من خلافات. وقد ذكر كل من الأستاذ «الصعيدي» والأستاذ «أمين الخولي» وغيرهما من العلماء والمؤرخين عددا من المجددين في مقدمتهم الواثق العباسي والمهتدي العباسي من الملوك وأحمد بن حنبل من الفقهاء والكندي والرازي من الفلاسفة والخوارزمي من الرياضيين. ولا شك أن كلا من هؤلاء الرجال له إسهاماته في مجال التجديد في الإسلام كما سنرى في الصفحات التالية:

لكن هناك ثلاثة أمور ينبغي التوقف عندها لتأمل أحوال هذا القرن.. أولها: الاضمحلال الذي بدأ يدب في أوصال الدولة الإسلامية، وثانيها: بدء نفوذ الصوفية ومغالاتهم، والثالثة: في ازدياد ضعف أوروبا.

فأما عن الأمر الأول الخاص باضمحلال الدولة الإسلامية فقد أشار إليه جلال الدين السيوطي في كتابه (تاريخ الخلفاء) نقلا عن المؤرخ «ابن جرير الطبري» لما علم بخلع المقتدر ومبايعة ابن المعتز قال: «ما الخبر؟ قيل: بويع ابن المعتز ، قال: فمن رشح للوزارة؟ قيل: محمد بن داود. قال: ومن ذكر للقضاء؟ قيل: أبو المثنى. فأطرق – أي ابن جرير – ثم قال: هذا الأمر لا يتم. فقيل له: وكيف؟ قال: كل واحد ممن سميتهم متقدم في معناه عالي الرتبة، والزمان مدبر، وما أرى هذا إلا اضمحلالا، وما أرى لمدته طولا».

وقد صدقت نبوءة الطبري ؛ فإن ابن المعتز لما تم له الأمر، بعث إليه المقتدر يأمره بالانصراف، حتى يتيسر له الانتقال إلى دار الخلافة، فلم يوافق، وهنا اجتمع أنصار المقتدر واتجهوا إلى حيث يقيم ابن المعتز.. فلما رآهم هرب منهم، فعاد الأمر إلى المقتدر كما كان، وقد حبس ابن المعتز إلى أن مات في السجن ، وانتهت ولاية المقتدر بقتله.. وهذا هو الاضمحلال بعينه.

وأما الأمر الثاني فهو في بداية نفوذ الصوفية، ودعواتهم السالبة في التجرد عن الدنيا بما فيها من متع ومباهج وطيبات، وإيثارهم الزهد المبالغ فيه كإيثار الجوع على الشبع، والاستغراق في الشطحات الصوفية ، والكلام عن المقامات التي ربما تحدث انعزالا عن معنى الحياة الواقعية، وتأثير ذلك على بناء المجتمع : فئاته وطبقاته، يضاعف من ذلك اعتبارهم أن أتباع الصوفية لهم الحظوة المستمدة من عند الله عز وجل.. وغير ذلك من تفكير سلبي سبب نكسات رجعية في المجتمع.. ضاعف من حدتها ظهور بعض الفرق الصوفية مثل : الملامتية وغيرها.

أما الأمر الثالث فهو في ازدياد ضعف أوروبا التي كانت تعيش – وقتئذ – في ظلام دائم، وجهالة شديدة، وتخلف واضح، وتفكك المجتمع إلى جماعات لا يحكمها نظام أو قانون، وإنما حياة همجية بدائية سائدة، ولم ينقذها من هذا الضعف والاضمحلال والتخلف سوى العلم العربي والحضارة الإسلامية التي عبرت الحدود من موطنها في الأندلس الإسلامية عبر مدينة طليطلة، أو من الجنوب الإيطالي من صقلية خاصة.

هذا العلم العربي، والحضارة العربية الإسلامية، والتقدم والتطور الحادث في الدولة الإسلامية.. كانت جميعها من المشاعل التي أضاءت ظلام أوروبا، وبدلتها من الضعف قوة، للأسف وجهت لضرب الذين أفادوهم وهم العرب والمسلمون بعد ذلك.

والصفحات التالية.. تتضمن الحديث عن بعض مجددي هذا القرن الثالث الهجري:

الواثـق بالله

أبو جعفر الواثق بالله هارون بن المعتصم بن الرشيد من الخلفاء القليلين الـذين اتفق المؤرخون والعلماء على اعتبارهم من المجددين في الإسلام . فباستثناء الخلفاء الراشدين الأربعة ، لا نجد من خلفاء بنى أمية سوى عمر بن عبد العزيز الذي كان يختلف أسلوبه عن أسلوب بنى أمية ، ويقترب من الخلفاء الراشدين على وجه التحديد ، كان قريب الشبه بجده الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أما بقية خلفاء بنى أمية فليس فيهم من اتفق العلماء والمؤرخون على اعتباره مجددا في الإسلام؛ ذلك لأن التجديد له شروطه التى لا تنطبق على أي منهم ؛ والسبب لأنهم منذ أن تولى كبيرهم معاوية بن أبي سفيان الحكم حتى آخر خلفائهم اتسمت عصورهم بالفتن والصراعات ؛ مما أدى في النهاية إلى تمزيق الدولة الإسلامية إلى شيع وأحزاب ، وتحويل الخلافة إلى ملك ، والتطاول على آل البيت وخاصة عليا وبنيه رضوان الله عليهم . إلى جانب أن حرصهم على أبهة الملك كان أكثر من حرصهم على إصلاح أحوال المسلمين رغم اتساع الدولة الذي بدأ منذ عهد الخليفة أبي بكر رضي الله عنه.

وإذا ما انتقلنا إلى العصر العباسى نجد من خلفائه مجددين كثر في الإسلام . فنجد هارون الرشيد ، والمأمون والواثق بالله وغيرهم ، وذلك لاختلافهم عن بنى أمية في إدارة شئون الإسلام ، واهتمامهم بما يفيد وينفع الدولة ، وما يميزها حضاريا. فنجد ما اهتم به هارون الرشيد من الاهتمام بالعلوم يمتد إلى ابنه المأمون وإلى حفيده الواثق بالله الذي ولد عام 196 هـ وتولى الخلافة بعد أبيه المعتصم بن هارون الرشيد عام 227 هـ واعتبر ضمن مجددي القرن الثالث للهجرة .

هذا المجدد كان وافر الأدب ، جيد الشعر ، وكثيرا ما كان يلقب بالمأمون الصغير ، وذلك لحبه للعلم والعلماء والأدب والأدباء ، وكان عمه المأمون يعظمه ويقدمه حتى على ولده .. لهذه الأسباب التي اتصف بها المأمون الكبير وورثها الواثق حتى قال عنه الفضل اليزيدي : « لم يكن في خلفاء بني العباس أكثر رواية للشعر من الواثق ، فقيل له : هل كان أروى من عمه المأمون ؟ فقال الفضل : نعم ؛ لأن المأمون كان يمزج الشعر بغيره من العلوم ، أما الواثق فكان لا يخلط بالشعر شيئا تقديرا منه لقيمة الشعر » .

كان إلى جانب محبته للعلوم والثقافة وتقريب العلماء والمثقفين منه . فكان يندر أن تخلو مجالسه من الشعراء أو العلماء والفنانين ، وغير ذلك مما يقرب الحاكم من شعبه .. فقد اتسم بالكثير من الصفات الشخصية الطيبة ومنها الحلم ، حتى قيل عنه: « ما كان في الخلفاء أحد أحلم من الواثق هارون بن المعتصم ، ولا أصبر على الأذى ، ولا أحكم ولا أعقل منه عند الخلاف » .

وكان يتسم بالتواضع الشديد والاحترام والتقدير لأهل العلم حتى قال عنه «أحمد بن حمدون» : « دخل هارون بن زياد مؤدب الخليفة الواثق بالله إلى مجلسه ، فأكرمه واحترمه . فسأله أحد الحاضرين : من هذا يا أمير المؤمنين الذي فعلت به هذا الفعل ؟ فقال : هذا أول من فتق لساني بذكر الله ، وقربني من رحمة الله ، هو معلمي ومؤدبي وأستاذي » .

وكان لا يفتر لسانه عن كلمة تسيء إلى شيعة علي بن أبي طالب ، على الرغم من أنه كانت هناك فجوة بين العلويين والعباسيين ، وعلى الرغم من أن الجانبين أبناء عمومة .. حتى قيل في عهد أحد خلفاء بني العباس الأوائل : « إن العلويين أصابهم ما أصابهم من هذا الخليفة العباسي أكثر مما كان يصنعه فيهم بنو أمية » . بينما نجد الواثق بالله يحفظ للعلويين التقدير والاحترام حتى كتب «يحيى بن أكثم» : «ليس

obeikandi.com

هناك من أحسن إلى آل علي بن أبي طالب مثل الواثق بالله ، حتى إنه قيل : إنه ما مات وفيهم فقير أو محتاج في عصره » . والحق أن هذا الأسلوب من التعامل قد بدأ من قبل : وبالتحديد من جده لأبيه أمير المؤمنين هارون الرشيد بن المهدي ، وامتد إلى حفيده الواثق بالله . ولعله بذلك كان يريد أن يصلح ما صنعه بنو أمية منذ كبيرهم معاوية بن أبي سفيان أو ما صنعته السياسة في أساليب بعض المتقدمين من خلفاء بني العباس إلى درجة أن منهم من كان يخشى زيادة نفوذ العلويين أكثر من خشيتهم من أطماع بني أمية في الحكم .

وحتى محنة أو أزمة الحديث عن خلق القرآن تلك التي بدأت في العصر الأموي وازدادت وتفاقمت في عصر بني العباس خاصة في عهد أمير المؤمنين المأمون العباسي ، وامتدت إلى الذين بعده سواء أخوه أو ابن أخيه الواثق بالله الذي تأثر بذلك حتى إنه بعث كتابا إلى أمير البصرة يأمره بأن يمتحن الأئمة بخلق القرآن وكان قد اتبع أباه المعتصم ، وعمه المأمون . إلا أنه رجع عن ذلك في أواخر أيام حكمه ، بعد أن اكتشف أن وراء هذه المحنة في عصره هو الوزير ابن أبي داود الذي كان يشعل النار كلما هدأت حول هذه المحنة إلى درجة أنه قرر أن : « من قال من الأسرى أن القرآن مخلوق أطلقوا سراحه وأعطوه دينارين ، ومن امتنع دعوه في الأسر إلى ما شاء الله حتى يقول أو يهلك .. » .

هذا الوزير الشرير ، الذي كان يتصف بالقسوة والغلظة قال عنه الخطيب ما نقله جلال الدين السيوطي بكتابه (تاريخ الخلفاء) وكان أحمد بن داود قد استولى على عقل الواثق بالله ، وحمله على التشديد في المحنة ، ودعا الناس إلى القول بخلق القرآن . إلا أنه كما يقال : إن الواثق رجع عن ذلك قبل وفاته عام 227 هـ .

وفي هذا السياق .. قال غيره ما سجله السيوطي في تأريخه بأنه قد حمل إلى مجلس أمير المؤمنين الواثق بالله رجل مكبل بالقيود والسلاسل . فلما دخل المجلس –

وابن أبي داود حاضر فيه - قال هذا الرجل المقيد موجها الحديث إلى هذا الوزير الشرير في حضور أمير المؤمنين : أخبرني عن هذا الرأي الذي دعوتم الناس إليه أعلمه رسول الله - ﷺ - ولم يدع الناس إليه ، أم شيء لم يعلمه عليه الصلاة والسلام؟ رد عليه ابن داود : بل علمه . قال الرجل المقيد بالسلاسل ، فكان يسعه أن لا يدعو الناس إليه وأنتم لا يسعكم ؟ وضحك أمير المؤمنين الواثق بالله وقام وهو قابض على فمه حتى لا يرتفع صوت ضحكه أمام الحضور ، ودخل بيتا وهو يقول مرددا : «وسع النبي - ﷺ - أن يسكت عنه ، ولا يسعنا » . ثم أمر لهذا المقيد بالسلاسل أن يعطى ثلثمائة دينار ، وأن يرد معززا مكرما إلى بلده ، ولم يمتحن أحدا بعد ذلك ، ومن يومها كره ومقت الوزير ابن أبي داود .

وهكذا كانت أخلاق الواثق وحيله إلى العدل والإنصاف ، ولهذا ولغيره الكثير اعتبره المؤرخون والعلماء أحد مجددي القرن الثالث الهجري .

* * *

الخـوارزمي

أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي : أحد مجددي القـرن الثالـث الهجـري، حيث توفي عام ٢٣٦ هجرية ٨٥٠ ميلادية ، وقد شهد جانبا من عصر الخليفة العباسى المأمون الذي يعتبر من أزهى العصور الإسلامية، حيـث أسـهم هـذا العـالم الجليـل بنصيب كبير في عظمة هذا العصر، مما جعله لـيس مـن أعمدتـه فحسب وإنـما مـن أعمدة الحضارة العربية الإسلامية، حيـث تطـايرت شـهرته ، وتـردد اسـمه في كـل أرجاء الدنيا ، حتى إنك إذا سألت عنه أجنبيا وليس عربيا أو مسلما، يقول لك عنـه: رأس رياضى من أكبر الرؤوس، لا في زمانه فحسب، بل في كل زمـان. وهـو الـذي ألف في الحساب، وألف في الجبر، وألف في الجغرافية، وفي الفلك.

أما في الحساب فهو مؤلف أقدم كتاب في الحـساب. وتـرجم هـذا الكتـاب إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي، وهي لغة أوروبا العلمية حـين ذاك. وتـرجم كتاب آخر في الجبر، وظل الكتابان يدرسـان في جامعـات أوروبـا بحـسبان أولهـما : كتاب حسابها الأول، وبحسبان الثاني كتاب جبرها الأول. وذلك إلى القرن السادس عشر الميلادي.

فهذا هو كتاب الحساب الذي كان له الحظ الأوفر في إدخال الأعداد العربية إلى أوروبا، وتسأل عن أصل هذا الكتاب العربي فلا تجد له في العربية أصلا. لقـد ضـاع أصله فيما ضيع الزمان. أو لعله يرقد اليوم في دار من دور الكتب العامة، أو دار كتب خاصة، أو في بيت من بيوت العرب أو بيوت المسلمين. في القسطنطينية أو في الهنـد، أو ما بينهما. أو في الصين أو إسبانيا أو ما بينهما.

obeikandl.com

إن الذين بحثوا في مأثورات العرب – وأكثرهم أوروبيون – يقولون إن آثار العرب أقلها الذي ظهر، وأكثرها الذي خفي، وإن الغد كفيل بالكشف عن كثير والكشف عن آثار العرب القدماء، كان كالكشف عن آثار القدماء من المصريين، كلاهما قريب العهد حديث.

ودخلت الأعداد العربية أوروبا فأسموها الجورزمات aLGORISMS، وتطلب معنى هذا اللفظ في القاموس الإفرنجي فتعلم أنه اسم لفن الحساب بالتسعة الأرقام العربية والصفر. وتطلب أصله، فتعلم أنه مأخوذ من الخوارزمي، أبي عبد الله محمد ابن موسى. وكتب أبو عبد الله الخوارزمي، إلى جانب كتاب الحساب، كتاب الجبر الذي ذكرنا. وسماه : (حساب الجبر والمقابلة).

وتسأل عن الجبر، كيف جاء العرب، فتسمع من قول أنه جاء من الهند، وتسمع من آخرين أنه جاء من الأغارقة، وتقارن بين الجبر الذي جاء به العرب، في القرون التي يسميها الغرب الوسطى، بالجبر الذي كان في الهند، وبالجبر الإغريقي. ذلك الذي جاء على يد إقليدس. وقد عاش بالإسكندرية في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد، أو ذاك الذي جاء على يد ديوفانتس DIOPHANTUS وقد عاش أيضا في النصف الثاني في القرن الثالث بعد الميلاد.. أقول : تقارن بين جبر العرب، وهذا الجبر الهندي الشرقي، وذاك الجبر الإغريقي الغربي فستجد فروقا في الكيف وفي الكم، وفي المزاج . وبينما انتحى الإغريق ناحية الهندسة يستعينون بها على حل المعادلات الجبرية، نحا العرب إلى جانب ذلك منحى مجردا صرفا، فبلغوا في تجريد الأعداد، وفي الفكر المجرد، مبلغا عاليا.

على أنك قد تزيد فتسأل، ومن أين جاء الهند بالجبر، ومن أين جاء الإغريق؟! وتبحث فتجد أن الصين كان بها قبل الميلاد المسيحي جبر، وتذهب في الدهر قدما. وتبحث فتعلم أن الفكرة الجبرية كانت حتى عند القدماء من المصريين. وتقرأ ورقة البردي المسماة ببردي أحمس.

obeikandl.com

وغير الخوارزمي، كتب في الحساب وفي الجبر كتاب من العرب آخرون. ترجمت كتبهم ودخلت أوروبا. ولكن ليس لكتب من هذه مثلما كان لكتب الخوارزمي من أثر النهضة الأوروبية العلمية التي ننعم في ظلالها اليوم.

وعابوا على العرب أن وقفت بهم الأعداد عند الألف، فلما أرادوا المليون قالوا ألف ألف. والذين يعيبون هكذا هم قوم يجهلون. إن الأعداد لا تخترع إلا عند الحاجة. وعند الألف، والألف ألف، وقفت حاجة العرب، وحاجة غير العرب كذلك. إن المليون لفظ في لغات بني البشر حديث. حيث لم يظهر إلا في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، ولم يستخدمه أهل الرياضة إلا عام ١٣٤٠م ومعناه يظهر أنه لم يتحدد حتى في القرن السادس عشر. فمن الكتاب من كتبه عندئذ فعني به، لا ألف ألف، كما نعني نحن اليوم، ولكن ألف ألف ألف. أي البليون : لفظ ظهر نحو عام ١٤٨٠ ميلادية. وعنوا به أولا مليون مليون، وهذا ما يفهمه الإنجليز إلى اليوم. وفهم الفرنسيون غير ذلك. فهموا أنه ألف مليون، وتبعهم الأمريكان إلى اليوم. لهذا يتفادى الكتاب كثيرا لفظ بليون، فيقولون مكانه ألف مليون.

وهكذا .. فإن الخوارزمي كان له فضل في تعريف العرب ثم الأوروبيين بعلم الحساب، ويعتبر كتابه عن الحساب الأول من نوعه، في أوروبا فقد نقله «أولارد البائي» إلى اللاتينية التي كانت لغة العلم في أوروبا في العصور الوسطى، وكان هذا الكتاب أول كتاب في الحساب داخل أوروبا، وبقي زمنا طويلا مرجعا للعلماء والتجار والمحاسبين وقد عرف في أوروبا باسم «الغورتمي» نسبة إلى الخوارزمي.

كذلك يعتبر الخوارزمي مؤسسا لعلم الجبر كعلم مستقل عن الحساب وهو الذي أخذته عنه أوروبا . وإلى جانب الحساب والجبر، فقد اشترك في قياس محيط الأرض في عصر الخليفة المأمون، كما أدخل تعديلات على جغرافية بطليموس، ونشر

كتابا صمم فيه صورة الأرض... إلى آخر هذه الإنجازات التي استفاد منها العرب وأوروبا بل والبشرية كلها ، على اعتبار أن شجرة العرفان شجرة عظيمة مباركة، ذهبت جذورها في الأرض وخفيت، وامتدت في ظلام خفائها إلى شرق وغرب. وهي شجرة إن خفيت أصولها، فقد طال جذعها وسمقت فروعها، وأينعت أزهارها، ونضجت لها من بعد أزهار، وأثمار. وقامت الأجيال على سقيها. وقد سقاها العرب فيمن سقى، وسقوها في قرون عز فيها السقاة.

فهذا مجد العرب. وهو مجد من بعض مجد الله. فالله حكيم، والله عليم. وهو سبحانه الذي جعل الخوارزمي وغيره من العلماء العرب في خدمة البشرية.

* * *

obeikandl.com

الإمام أحمد بن حنبل

الإمام أحمد بن حنبل من مجددي القرن الثالث الهجري، على ما اتفق عليه المؤرخون، حيث توفي ببغداد في ١٢ ربيع الأول عام ٢٤١ هـ ، وحين نرجع إلى ما كتبه عنه الشيخ « محمد أبو زهرة » نجد أن ابن حنبل ولد في ربيع الأول عام ١٦٤هـ.

وقد ولد من أسرة عربية شيبانية ، فكلا أبويه من شيبان، وشيبان قبيلة من ربيعة، لها همة في الجاهلية والإسلام، حتى لقد قيل: «إذا كنت في ربيعة فكاثر وفاخر بشيبان، وحارب بشيبان».

وكان أبوه محمد بن حنبل من القواد، وجده ممن اشترك في نصرة العباسيين حتى زالت وانتهت الدولة الأموية، وقد ضربه حاكم الأمويين لذلك فاحتمل حتى زالت تلك الدولة، وأمه كانت شيبانية كما أشرنا، وكان أبوها جوادا كريما قد فتح بابه للعرب، حيث كانت تنزل عنده وفود القبائل فيضيفها.

وورث أحمد بن حنبل عن هذين الأبوين سمو النفس، وبعد الهمة، وجميل الصبر، وقوة الاحتمال، ولكن قدر لهذا الفتى أن يتربى يتيما، كما تربى شيخه الشافعي يتيما، حيث لم يدرك أباه. وقد قامت أمه على تربيته والعناية بتنشئته في ظل بعض ذوي عصبته، ولم يتركه أبوه فقيرا معدما لا يجد ما يكفيه، بل ترك له عقارا يسكنه، وبه حوانيت لها غلات ضئيلة تعطيه الكفاف من العيش، ولا تعطيه كريم العيش ولينه، وقد استمر يعيش من هذه الغلة الضئيلة حتى قبضه الله تعالى إليه، فعندما أقبلت الدنيا عليه، وألقيت بين يديه، نحاها عنه بنفس نزيهة... حتى كانت الأموال تجيئه من المتوكل فيردها في تواضع كريم.

وقد ظهرت مظاهر الورع لدى أحمد بن حنبل منذ أن كان طفلا لم يكتمل رشده، فقد كان عمه يرسل إلى بعض الولاة بأحوال بغداد، وكان يكتب بها تقارير، وقد كلف ابن أخيه أحمد بن حنبل أن يبلغ الوالي بعضها، فأخذ الكتب وألقى بها في النهر. ولما سئل عن ذلك قال متعجبا: «أنا كنت أرفع تلك الأخبار!! رميت بها في الماء» فجعل الوالي وهو الذي كان يسائله، يسترجع ويقول: «هذا غلام يتورع - أي ورع - ، فكيف نحن ؟!».

ولهذا النزوع الديني منذ صباه اختارت له أسرته الدراسات الدينية، فتعلم علوم العربية وحفظ القرآن، حتى إذا بلغ الرابعة عشرة، وجه إلى الديوان ليتدرب على الكتابة والتحرير. حتى إذا أتم هذا الدور، وشب عن الطوق، أخذ يختار لنفسه طرقا وأساليب، فاختار ما يتفق مع نزوعه ومع ما نشأته عليه أسرته، وقد اختار أن يتجه إلى الحديث، فكان يذهب إلى حلقاته، فجلس في حلقة القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة، وقد كان فقيها ومحدثا، فقبس من فقهه قبسة، وإن لم يستمر على الجلوس في حلقته، فقد اتجه إلى الحديث بكليته، وكان هناك المحدثون في كل بقاع الأراضي الإسلامية. ففي البصرة محدثون، وفي الكوفة محدثون، وفي بغداد كثيرون منهم وبلاد الحجاز تزخر وتفخر بهم. وقد التقت المدائن والأمصار التقاء علميا في ذلك العصر، فلم يكن ثمة حواجز إقليمية تجعل كل إقليم يكتفي بحديث أهله، ولا يقبل رواية غيره، بل كانت الرحلة العلمية مستمرة متصلة.

وعندما اعتزم أحمد بن حنبل في مستهل شبابه أن يطلب الحديث ، أخذ نفسه بالشدة في طلبه من كل ينابيعه، فجمع حديث الشام والعراق والحجاز، وبلا ريب قد طلب الحديث أولا في بغداد ، وابتدأ في طلبه في سن الخامسة عشرة أي سنة ١٧٩ هـ، واستمر يسمع ويكتب في بغداد حتى سنة ١٨٦ هـ، ثم ابتدأ رحلاته العلمية.

وبذلك يكون قد بقي في بغداد نحو سبع سنين يطلب الحديث في مكانه فيها، ولزم مع ذلك ابن حازم الواسعي نحو أربع سنين منها، وبعد موت شيخه هذا تلقى عن كل شيوخ الحديث في بغداد، وبدأ رحلاته حيث رحل إلى البصرة خمس مرات، ورحل إلى الحجاز مثلها، وفي رحلته إلى الحجاز سنة ١٨٧هـ التقى بالإمام الشافعي، فأخذ عنه الفقه، وقد كان لقاؤه بالشافعي بعد أن نضج، وأخذ يبين مناهج الاستنباط. وهنا نجد أحمد بن حنبل يضم إلى دراسته وجمعه للحديث دراسته للفقه، وبذلك التقى عنده علم الفقه وعلم الحديث، وإن كان الحديث فيه أظهر وأوضح. وكان يرحل الرحلات الكثيرة مع قلة في المال، حتى إنه كان أحيانا يرحل ماشيا، وقد حج خمس مرات، منها ثلاث كان ماشيا على قدميه.

ولقد كان يستطيب المشقة في طلب الحديث؛ لأن الشيء الذي يجيء بيسر يكون قريب النسيان، وكان يحتسب النية في الهجرة لأجل الحديث، وقد سافر إلى اليمن لطلب الحديث الذي رواه عبد الرزاق بن همام بصنعاء اليمن. وفي هذا السفر فقد منه الزاد، فكان يحمل أمتعة الناس بأجر حتى وصل إلى عبد الرزاق. ولما علم هذا بما عليه من مشقة أمده بدنانير، فقال أحمد الصابر الشاكر: «أنا بخير»! وردها! وقد مكث على هذه المشقة سنتين استهان بها فيهما، لأنها في طلب الحديث، ولأن العمل الشاق خير من قبول العطاء.

وهكذا.. طوف أحمد بن حنبل في الأقاليم الإسلامية طالبا للحديث، لا يستكثر منه الكثير، ولا يني عن الكد والجهد والتعب، حتى كان يحمل حقائب كتبه على ظهره.

وكلما كد وجد واجتهد زاد مقامه... وقد بلغ مبلغ الإمامة، وصار مقصد طلاب الحديث، وفقه الحديث، والمستفتين من كل بقاع العالم الإسلامي، وكان يدون كل ما يستمع ويكتب، وقد رآه بعض تلاميذه على هذه الحال وقد بلغ من

الفضل ما بلغ فقال له: «يا أبا عبد الله، أنت قد بلغت هذا المبلغ، وأنت إمام المسلمين، فلماذا تكتب؟» فقال الإمام المجد: «مع المحبرة إلى المقبرة» وكان يقول رضي الله عنه : «أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر».

وكان الإمام أحمد معنيا بتدوين ما يسمع وما يكتب في الكتب، فإن العصر الذي عاشه كان عصر تدوين الكتب في شتى العلوم، كان يصمت إلى ما يسمع ويحفظه، وإذا سأل سائل أو روى عنه راو لا يعتمد على حفظه في روايته، بل مما كتب، ويستمع إليه ليقرأ ما كتبه راويه.

ولقد اتجه أحمد بن حنبل إلى الفقه منذ لقائه بالشافعي، فامتزج حديثه بفقهه، ودرس الفقه من ينابيعه المختلفة حتى إن تلميذه قال: كان أحمد قد كتب ما كتب أهل الرأي، ثم لم يلتفت إليها. فهو يطلب الآراء وإن كان لا يذعن لاتجاه بعضها.

وإن الأحاديث التي رواها هي أحاديث فقه ، حيث روى الأحاديث النبوية وفقه الصحابة فيما رواه من فتاويهم وأقضيتهم ، وفقه التابعين فيما رواه من فتاويهم وأقضيتهم أيضا، على رواية ما جاء في موطأ مالك من فتاوى للصحابة، بل كان حريصا على تعرف مالك في مسائله، وخصوصا ما كان على عمل أهل المدينة. وقد سجل حديثه في كتابه العظيم «المسند»، وهو أكبر موسوعة لأحاديث رسول الله ﷺ ، وفتاوى الصحابة وأقضيتهم.

وقد جلس أحمد بن حنبل للحديث والإفتاء عندما بلغ الأربعين من عمره، ويروى أن أحد معاصريه جاء إليه يطلب الحديث سنة ٢٠٣ هـ، فذهب ذلك الطالب إلى عبد الرزاق بن همام في صنعاء باليمن ، ثم عاد إلى بغداد سنة ٢٠٤ فوجده قد حدث واستوى الناس في مجلسه.

وأما لماذا لم يحدث قبل أن يبلغ الأربعين؟ فإن ذلك اقتداء بالنبي ﷺ لم ينزل عليه الوحي قبل الأربعين. وقد استوى أحمد بن حنبل من بعد الأربعين في جلسة الدرس والإفتاء، وأم الناس لعلمه وفضله، وكان درسه بمسجد بغداد.

وقد اتصف الإمام أحمد بصفات رفعته في جيله، وجعلته في الذروة بين العلماء، **وأولى هذه الصفات**: الصفة العلمية التي هي لازمة لكل عالم اشتغل بفرع من فروع العلم الديني أو الدنيوي، وهي الحافظة الواعية، فهذه الحافظة أساس لكل علم ونظر، وخصوصا علماء الحديث. ولقد آتى الله أحمد منها حظا وفيرا، والأخبار عنه في هذا متضافرة، وقد عده كثيرون أحفظ أهل عصره، ولقد قيل لأبي زرعة معاصره: «من رأيت من المشايخ والمحدثين أحفظ؟». قال: «أحمد بن حنبل».

وكان مع حفظه ووعيه عميق النظرة في كل ما ينقل، فهو يحفظ أحاديث النبي ﷺ وفتاوى الصحابة، وفتاوى كبار التابعين، ويتفهم هذا كله تفهم العارف المستنبط لا مجرد الراوي الحافظ، وقد اشتهر بذلك بين المحدثين حتى عد فقيههم في عصره. ويقول في ذلك إسحاق بن راهويه: «كنا نتذاكر الحديث من طريق أو طريقين أو ثلاثة فأقول ما مراده، ما أفقهه، فيقفون كلهم إلا الإمام أحمد ابن حنبل».

والصفة الثانية، وهي أبرز صفات أحمد بن حنبل: الصبر والجلد وقوة الاحتمال، وهي مجموعة سجايا كريمة أساسها قوة الإرادة وصدق العزيمة، وهذه الصفة هي مزاج صفات الإمام أحمد، فقد جمع بها بين الفقر والجود وعزة النفس والعفة، وجمع بها بين الإباء والعفو، احتمال الأذى والصفح الجميل، وهي التي جعلته يتحمل الشدة في طلب العلم في الحضر والبدو، وهي التي نازل بها الذين رموه بالأذى فصبر وصابر، ولم يهن ولم يجبهم إلى قولهم، حتى عجزوا وهم الأقوياء، وغلب وهو الضعيف في بدنه، ولكنه القوي في نفسه.

ولما زالت النقمة اختبره الله بالنعمة، فصبر فيها كما صبر في الأولى، فرد عطاء الخليفة ورضى أن يعيش هو وعياله في قلة من الرزق والعيش. وصبره، صبر لا أنين فيه ولا شكوى ولا ذهاب جنان، ساقوا اثنين بين يديه فقتلوهما، وهم يهددونه

بالقتل أو يقول ما يريدون، فوجد في بعض الأحياء المعذبين البويطي صاحب الشافعي فقال له: «ماذا قال الشافعي في المسح على الخفين؟»، فتعجب الجميع حتى قال أحمد بن دؤاب متعجبا: «انظروا رجلا هو ذا يقدم لضرب عنقه فيناظر في الفقه!».

والصفة الثالثة - النزاهة بكل شعبها وضروبها كما يقول الشيخ « محمد أبو زهرة» : «فهو نزيه النفس لم يأخذ من مال غيره : قليلا أو كثيرا. وهو نزيه في إيمانه فلم يجعل لغير الله سلطانا عليه ، ولا يداري ولا يداجي ، ولو كان السيف في يد من يبرق ويرعد. وهو نزيه في تفكيره ، فلم يرد أن يفكر في أمر لم يفكر فيه السلف الصالح ولا يحقق حاجة دنيوية من حاجات الزمان. وهو نزيه في فقهه يأخذ برأي الصحابة ، فإن اختلفوا اعتبر أقوالهم أقوالا له، وكذلك التابعون الكبار أهل الورع. وإذا لم يكن نص ولا فتوى لصحابي أو تابعي أخذ بالقياس، واعتبره كأكل الميتة لا يحل إلا للضرورة وبقدرها » .

وكان مع زهادته ونزاهته يبيح الحلال لكل من يستطيعه من حلال، ويعتبر تناول الحلال يلين القلوب، وفي دائرة الحلال الذي لا شبهة فيه تستطاب الحياة، ويقول في ذلك: «يؤكل كل الطعام بثلاثة: مع الإخوان بالسرور، ومع الفقراء بالإيثار، ومع أبناء الدنيا بالمروءة» وكان يفهم أن الصداقة البرة عز، ولذا كان يقول: «إذا مات أصدقاء الرجل ذل»..... وأن النزاهة المطلقة التي اتصف بها ذلك الإمام الجليل انبعثت من إخلاص مستفيض، حتى إنه لإخلاصه كان يحب أن يخمل ذكره، ويغبط الذين خمل ذكرهم، ويقول في ذلك: «طوبى لمن أخمل الله عز وجل ذكره». ولإخلاصه كان يستقل عبادته، ولا يستكثر المنة التي نزلت به.

والصفة الرابعة التي امتاز بها ذلك الإمام الجليل هي المهابة. كان مهيبا من غير خوف، وكان رجال الشرطة يهابونه حتى عندما يهاجمون داره. فإنه يروى أن شرطيا

ذهب ليناديه، فهاب أن يطرق بابه، وآثر أن يطرق باب عمه ويدخل إليه من بابه، حتى يؤسس نفسه بذلك اللقاء المهيب. وقد قال أحد معاصريه: «دخلت على فلان وفلان من السلاطين، فما رأيت أهيب من أحمد بن حنبل. صرت إليه، أكلمه في شيء فوقعت علي الرعدة حين رأيته من هيبته».

وإن الهيبة هبة من الله تعالى، وقد نماها عند أحمد بن حنبل ما اتصف به من الجد الذي لا مزاح فيه ، حتى إنه ليحسب أن كل مزحة مجة من العقل... ونماها صمته فإذا تكلم لالغو ولا تأثيم فيما يقول... ونماها صبره في المحن، وعفته عن أموال الحكام.

وكان مع هذه المهابة الأليف المأمون المخلص والمحب لتلاميذه وأصحابه ، وقد قال أحد معاصريه في وصفه: «ما رأيت أحدا في عصر أحمد بن حنبل ممن رأيت، أجمع منه ديانة وصيانة، وملكا لنفسه، وفقها، وأدب نفس، وكرم خلق، وثبات قلب، وكرم مجالسة».

ذاع بين الناس وصف التشدد في الدين بالحنبلية، بل ذاع في العصور الإسلامية إلى عصرنا هذا وصف التشدد في النزاهة بالحنبلية. وإن هذا الوصف له صلة بالإمام أحمد بن حنبل ذاته، وببعض الذين اعتنقوا مذهبه. فأما الذي يتصل بشخصه فهو النزاهة والبعد عن الحرام، حتى إنه كان يمتنع عن أكل طعامه إذا خبز بوقود ظن أن مالكه لم يملكه من حلال، أو فيه شبهة حرام، وأن صفاته وأعماله كلها تدل على أنه أخذ نفسه بشدة لا يحتملها سواه، وإن لم يدع الناس إلى أن يسلكوا مسلكه. أما ما وقع من بعض الذين اعتنقوا مذهبه فإن ابن الأثير يذكر في تاريخه أنه في سنة ٣٢٣ هـ قامت فتنة في بغداد بسبب شدة الحنابلة، فأراقوا الأنبذة، وهاجموا دور القوادين، وكسروا أدوات الغناء، وضربوا المغنيات، وكلما رأوا رجلا يمشي مع امرأة استوقفوهما، وسألوهما عن العلاقة بينهما، ويندر أن يسلم منهم أحد، وأغلظوا على الشافعية وعلى الشيعة في تقديس مناظراتهم.

وأما ما يتعلق بالمذهب الحنبلي نفسه ، فإنه قد اشتهر بالتشدد في الطهارة، انفرد بالتشدد في مسائل: منها أنه يوجب تطهير أي إناء تقع فيه نجاسة بغسله سبع مرات إحداهن بالتراب، وذلك هو الراجح في المذهب. ومنها - أن الماء الذي ينزل من الإناء الذي يقع فيه نجاسة يعد نجسا ، فكل الماء الذي ينزل من مرات الغسيل يعد نجسا. ومنها أنه إذا كان مع الشخص إناءان، أحدهما فيه ماء طاهر، والثاني فيه ماء نجس، وشك لم يعرف أيهما، أريقا من غير نحر. ومنها أن الأواني التي كان يستعملها الوثنيون والمجوس يجب تطهيرها بطريقة الحنابلة قبل استعمالها. وبهذا حق للمصريين وغيرهم أن يصفوا كل متشدد في دينه أو نزاهته بأنه حنبلي، فالوصف سليم، وأكثر هذه الأسباب يرفع الحنبلية ولا يخفضها .

يبقى في هذا الحديث الذي دار حول الإمام أحمد بن حنبل، بعد قراءتنا لبعض ما كتبه الشيخ «محمد أبو زهرة» وغيره من العلماء والمهتمين، رأى هذا الإمام في مسألة «خلق القرآن» تلك التي أثيرت في عصره وانقسم العلماء وقتئذ إلى فريقين والحق أن هذه القضية شغلت المسلمين زمنا طويلا. حيث بدأت تطل برأسها في العصر الأموي لتمتد وتأخذ مجالا أوسع وأرحب في الجدل والمناقشة إبان العصر العباسي ، وبالتحديد في عهد الخليفة المأمون. وقد انحصر الجدل فيها بين طرفين: أهل الرأي ويتزعمهم المأمون أحد المجددين في القرن الثاني وخلفاؤه، وأهل الحديث ويمثلهم أحمد بن حنبل أحد المجددين في القرن الثالث الهجري كما عرفنا.

والقضية كانت حول مسألة خلق القرآن. الطرف الذي يمثل أهل الرأي يرى أن القرآن مخلوق، والطرف الذي يمثل أهل الحديث يرى أنه لا مجال لمناقشة مثل هذه المسألة ، طالما لم يأت بشأنها نص في الأحاديث النبوية ، ولم يناقشها الخلفاء والتابعون بعد ذلك.

ولعل «بداية» طرح هذه المسألة في عصر بني أمية ، وبعد مقتل الإمام علي كرم الله وجهه ، وما صاحب ذلك من ظروف سياسية يجسد الهدف الأساسى منها في البداية على الأقل ، وهو العمل على تفرق المسلمين في الرأي حول مسألة لا تتطلبها حاجتهم وقتئذ. فقد بدأها أناس غير مسلمين يريدون إثارة الجدل ، أو كما علق العالم الفقيه الراحل محمد أبو زهرة: «إثارة الجدل» ومع الجدل الريب بين المسلمين. حتى تضعف قوة اليقين في قلوبهم، حين أثارها في عصر بني أمية (الجعد بن درهم) واستنكرها كثير من العلماء. واعتبروا إثارة ذلك بدعة. ولزم بقية التابعين الصمت. فلم يتعرضوا لها سلبا أو إيجابا وقتل خالد بن عبد الله القسري (الجعد بن درهم) وكان بين المسلمين طائفة قد تصدت للرد على كل ما يثيره البعض، ووجدت أن من الواجب أن يقولوا أن القرآن مخلوق.

وهكذا نرى في هذا الرأي : أن البداية كانت في العصر الأموي، وأن التابعين لزموا الصمت. ولعلهم فعلوا ذلك تجنبا لاتساع الجدل، إلا أنه بعد أن تولى المأمون أمر المسلمين. واتخاذه رأي المعتزلة. حتى كان يقول: «المعتزلة أصحابنا» أخذ يدعو إلى القول بخلق القرآن محاولا أن يحمل الفقهاء والمحدثين من أهل السنة على اعتناق ذلك. ولكن بعضهم توقف عن اعتناق رأي المأمون بدعوى أنهم يقولون ما لم يقله الرسول ﷺ أو صحابته رضى الله عنهم. خاصة وأن هذا الأمر لم يكن الناس في حاجة إليه في حياتهم العملية.

غير أن المأمون لم يتراجع. وكتب إلى وزيره أحمد بن داود الذي كان له ضلع كبير في تحريك هذه القضية ، يأمره أن يحمل الناس على القول بخلق القرآن ، وأن يجمع القضاة والفقهاء ليعلمهم ذلك ، فمن أقر أن القرآن مخلوق خلى سبيله ، ومن أبى أعلمه به. كان ذلك في كتاب موجه قال فيه: «وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية... ساووا بين الله تبارك وتعالى ، وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا مجتمعين على أنه قديم لم يخلقه. وقد قال الله عز

obeikandl.com

وجل في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء للمؤمنين ورحمة: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[1] فكل ما جعله الله فقد خلقه».

وبدأت كتب المأمون في هذا الشأن تأتي تباعا ، فبدأ بضرورة حمل كل من يتولى عملا في الدولة على القول بخلق القرآن، «ولا تقبل شهادة أي شخص ما لم يقل بخلق القرآن»، ثم تصعد في ذلك فمنع المفتين والمحدثين أن يقوموا بالفتوى أو بالحديث ما لم يقروا بخلق القرآن. وانتهى الأمر بأن ينزل العقاب الشديد بل والإعدام بمن لم يقل أن القرآن مخلوق. ونتيجة لهذا الأمر استدعى الفقهاء والمحدثين الذين لا يقولون ذلك موثقين بالأغلال والسلاسل قائلا: «فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعا على السيف إن شاء الله... ولا قوة إلا بالله».

وقد أجاب الجميع ما عدا ثلاثة سيقوا موثقين إلى المأمون فرجع أحدهم عن رأيه في الطريق ومات الثاني وبقي الثالث وهو الإمام أحمد بن حنبل ، للمحنة صابرا، غير أن المأمون مات قبل أن يصله هذا الإمام الجليل إلا أن التشديد في مسألة خلق القرآن كان وصية من المأمون إلى أخيه المعتصم.

وطبيعي .. أن يقوم الخليفة المعتصم بالوصية فيعذب الإمام ابن حنبل بالسجن مع الضرب المتواصل ثمانية وعشرين شهرا. والإمام مصمم على رأيه ، بأنه لا يقول بشيء لم يصدر به حديث ، وحين يئس المعتصم أخرجه من السجن على أن يلزم داره فلا يفتي ولا يحدث وإن كان قد سمح له بالإفتاء في أواخر عهده.

وبعد المعتصم يتولى الواثق الخلافة فيعيد المسألة من جديد . وينزل بالإمام ابن حنبل وغيره عقابا شديدا بالسجن أو بالضرب. ولكنهم يزدادون إصرارا حتى رأى الواثق أن يباشر التحقيق معهم بنفسه ، فيحضر ابن حنبل، ويتولى التحقيق معه الوزير أحمد بن داود في حضرة الخليفة.

(١) الزخرف: ٣.

ومن الغريب أن يتولى هذا الوزير التحقيق وهو خصم في الوقت نفسه فيسأله: لماذا لا تقول إن القرآن مخلوق؟ ويجيب ابن حنبل : «شيء لم يدع إليه رسول الله ﷺ ولا الخلفاء رضوان الله عليهم. ويقول الإمام ليس يخلو أن تقول علموه أو جهلوه، فإن قلت علموه وسكتوا عنه وسعني وإياك من السكوت ما وسع القوم ، وإن قلت جهلوه وعلمته أنت - الوزير - فيا لكع ابن لكع ، يجهل النبي الكريم والخلفاء الراشدون شيئا تعلمه أنت»؟!

فيعاد إلى سجنه وتعذيبه ، لكن دون جدوى ، فيخرجونه بشرط ألا يفتي ولا يحدث في عهد الواثق ، حتى إذا جاء الخليفة المتوكل يزيل عنه هذه المحنة بأن يبعد أحمد بن داود «المحرك لها والموسوس بها » لمن سبقه من الخلفاء. ويعلق العالم الراحل «أبو زهرة» على هذه القضية قائلا: «الحق أن القائلين بعدم خلق القرآن لهم وجهة نظر فيما يقولون وليس فيما يقولون كفر أو زيغ. بل إن الذي دفعهم إلى ذلك هو سد الطريق على الذين يحاولون إفساد المسلمين بتأويل بعض العبارات القرآنية تأويلا باطلا. كما أن الإمام أحمد بن حنبل ومعه كل المحدثين ما كانوا يريدون الخوض في ذلك لأنه لا نص فيه ولا توجد فائدة عملية منه » .

وهكذا .. كانت قضية غريبة. أثارتها في البداية عناصر أموية أرادت شغل تفكير المسلمين فيما لا يجدي ، واستمرت بموافقة العباسيين . ثم كان من نتيجتها تعذيب هذا الإمام الجليل وتعطيل اجتهاداته!

* * *

الإمـام البخـاري

الإمام البخاري هو : محمد بن أبي الحسن بن إبراهيم المغيرة بن بردزيـه، المولـود في بخارى والمنتسب إليها... أحد مجددي القرن الثالث للهجرة، حيـث كانـت وفاتـه عـام ٢٥٦ هـ بعد حياة حافلة قضاها في خدمة الحديث النبوي الشريف إما باحثا عنـه ومنقبـا في أقطار العالم الإسلامي ، أو محققا وشارحا له في أجزاء لا يغفل عنها أي مسلم.

اقترن حفظه للقرآن صغيرا دون العاشرة، بطور تأسيسه وتكوينـه، إذ تفتحـت مداركه على معاني هذا الكتاب المبين... إلى درجة أن مؤرخيه ومنهم الأستاذ عبد الله ابن سعد الرويشد يشيدون به ويذهبون إلى أنه كان سريع الصعود مع النضج.

وبعد حفظ القرآن الكريم اتجه إلى حفظ الحديث وعلومـه، ويـصبح في مقدمـة المحدثين . ولعل اهتمامه بالحديث حفظا وشرحا نستدركه فيما قاله المؤرخ المقريـزي: سمعت محمد بن أبي حاتم وراق البخاري يقول: سمعت البخاري يقـول: «ألهمـت حفظ الحديث وأنا في الكتاب، قلت: وكم أتى عليك إذ ذاك؟ فقال: عـشر سـنين أو أقل، ثم خرجت من الكتاب فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره، فقال يوما فيما كان يقرأ على الناس:«سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم» فقال: إن أبـا الـزبير لم يـرو عـن إبراهيم، فانتهرني، فقلت له: ارجع إلى الأصل إن كان عندك، فدخل فنظـر فيـه، ثـم رجع فقال: كيف هو يا غلام؟ فقلت: هو الزبير - وهو ابن عـدي - عـن إبـراهيم، فأخذ القلم وأصلح كتابه، وقال لى: صدقت. قال: فقال لـه إنـسان: ابـن كـم حـين رددت عليه؟ فقال: ابن إحدى عشرة سنة».

وهذا الابتداء كان بشير خير للبخاري وقد زاده انتصاره في محاورة الداخلي ثقة في نفسه، واطمئنانا لمستقبله، ثم لا شك أنه زاده إخلاصا في العمل وإقبالا على الطلب، فلم يكن يقتنع بما يلتمسه من شيوخه، وما يتلقاه عنهم بل كان يتحول عنهم إلى الكتب يعكف عليها، ويشغل وقته بقراءتها وحفظها ويستمر على هذا المنهاج خمسة أعوام بعد مجاوزته مقاعد الكتاب حتى إذا أشرفت هذه الأعوام على التمام كان قد وعى وحفظ الأعلام المشهورين الذين تتلمذ عليهم في بلده، وزاد عليهم بحفظ ما وقع له من كتب الأئمة السابقين – وهو يقول فيما سمعه منه وراقه محمد ابن أبي حاتم: «فلما بلغت ست عشرة سنة حفظت كتب ابن المبارك ، وعرفت كلام هؤلاء» يعني أصحاب الرأي كما يقول الحافظ ابن حجر في (هدي الساري).

وكان البخاري يميل إلى كتب الحديث والفقه ويؤثرها بالقراءة والحفظ، والأخبار متواترة على كثرة ما وعاه البخاري في صباه في روايته للحديث ومعرفته به معرفة لا يستطيع غيره أن يحصيها في هذه الفترة القصيرة. بل كادت تشرف به على العمى أحيانا، ويقول أحمد بن الفضل البلخي:

«ذهبت عينا محمد في صغره، فرأت أمه النبى إبراهيم عليه السلام في منامها فقال: يا هذه قد رد الله على ابنك بصره بكثرة بكائك – أو دعائك – فأصبح وقد رد الله عليه بصره».

وكان البخاري عزيز النفس، عفيف اليد، يتجمل ويتحمل، صبورا على المكاره والشدائد وصروف الدهر، ولا يريق ماء وجهه حتى في أشد حالات العسرة، والمسغبة، فيعالج الجوع ومراراته، ويحمل نفسه بالصبر إلى أن يفرج الله ما به، وينزه كرامته عن امتداد اليد.

وقد فارق البخاري وطنه بعد أن بلغ السادسة عشرة من عمره وكان ذلك سنة (عشر ومائتين هجرية – ٢١٠ هـ) فلقد خرج من بلده بخارى مودعا عهد الاستقرار والعيش المقيم في رحاب الأهل والعشيرة، متخطيا مرحلة التكوين والتلمذة

المحضة، والأفق العلمى المحدود في وطنه، خرج مع أمه وأخيه أحمد - وكان أسن منه - ليؤدوا فريضة الحج، فلما انتهى الموسم قفلت الأم إلى بخارى مع ابنها الأكبر. وبقى هو في حرم الله وفي جوار بيته ليستقبل العهد الجديد : عهد الرحلة الدائبة التى لا تقيم إلا بمقدار ما تأخذ من جديد المعرفة، وعهد التبحر في العلم والرواية، وعهد التحصيل في أفق رحيب يتميز نطاقه على محيط العالم الإسلامى كله، وعهد التصدر لمنصب الأستاذية في كل بلد ينزله، مع دوام التلمذة لكل ما يجد في الجلوس إليه فائدة، وعهد التسجيل لمحصوله العلمي الغزير، وتأليفه على نحو يفيد الإسلام وينفع المسلمين.

وقد كان البخاري موفقا إلى اختيار الحرمين الشريفين ليكونا قبلته فيما يتزود به من الرواية عن شيوخه. فأقام بمكة ما أقام، ثم رحل إلى المدينة فمكث فيها نحو عام، حتى إذا أخذ حظه من السماع لمحدثي الحجاز، انطلق في سياحته متنقلا إلى غيره من الأقطار، وتواصلت رحلاته حتى شملت معظم الرقعة الإسلامية، فطوف بأهم المراكز العلمية المنبثة بين أرجائها، فيما بين حدود مصر ناحية الغرب، ونهاية خراسان وما وراء النهر في أقصى الشرق.

وقد كانت غاية البخاري من هذه الرحلات العلم وتحصيله، والعكوف عليه، فما غاب عنه لحظة من حياته، ولا أشرك في طلبه والسعي له شيئا آخر من عرض الدنيا وإن عظم، بل حصر رغبته فيه وحده، ووفر عليه وقته وجهده، وما رئي إلا هو على حال من ثلاث: إما جالسا إلى شيخ يسمع منه ويتلقى عنه، أو متصدرا للحديث لمن حوله من الطلاب، أو منقطعا إلى القلم والقرطاس يقيد شوارد ما جمع، ليحفظها بالتدوين من الضياع، وليعدها بالتصنيف والتأليف للانتفاع وسهولة الاطلاع.

وأول ما جنى البخاري من ثمار هذا العهد أن تسنى له لقاء عدد من الشيوخ لم يقاربه فيه محدث لا في عصره ولا فيما سبقه أو لحقه، فقد جاب الأقطار وطوف

بالأمصار، ولقي أغلب المحدثين في زمنه - وما كان أكثرهم حينذاك، وبذلك تضاعف أعداد من التقى بهم. وقد أحصى على وجه التحديد نوعا من هؤلاء فيقول: «كتبت عن ألف وثمانين نفسا ليس منهم إلا صاحب حديث».

وقد كان شيوخ البخاري كثيرين، منهم في مكة ومنهم في المدينة، ومنهم في العراق في البصرة وفي الكوفة، وفي بغداد، وفي الجزيرة، وفي الشام، وفي مصر، وفي بلخ، وفي مرو، وفي نيسابور، وهم على كثرتهم واختلاف أمصارهم يحصرهم المحدثون في الطبقات الآتية :

١- من حدثه عن التابعين مثل: محمد بن عبد الله الأنصاري حدثه عن حميد، ومثل: عبيد الله بن موسى الذي حدثه عن إسماعيل بن أبي خالد.
٢- من كان في هذا العصر، ولكنه لم يسمع من التابعين الثقات كآدم بن أبي إياس وسعيد بن أبي مريم.
٣- ومنهم من لم يلق التابعين ، بل أخذ عن كبار من تبع الأتباع كنعيم بن حماد، ويحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وأمثال هؤلاء.
٤- وأخيرا : جماعة في عداده في السن والإسناد سمع منهم للفائدة كعبد الله ابن أبي العاص الخوارزمي، وعبد الله بن محمد الآمل.

وقد أفاد البخاري من هذه المشيخة الضخمة ما فتح له في المعرفة آفاقا جديدة ذهب إلى أبعد غاياتها، فاستزاد على ثروته السابقة من الحفظ أضعافا كثيرة، واستضاف إلى حظه من فقه الحديث وما يضاهي هذه الزيادة الكبيرة.

وهكذا .. كان البخاري واحدا من الأفذاذ النادرين الذين وهبوا حياتهم لخدمة الحديث النبوي الشريف، والأعداد التي رويت في تقدير المشهور من حفظه لا تعلو على مستوى كفايته ، بل هي دونه بكثير وهو ما يجعله ضمن المجددين في الإسلام.

* * *

الكـندي

في مقدمة مجددي القـرن الثالـث الهجـري : أبـو يوسـف يعقـوب بـن إسـحق الكندي فيلسوف العرب، وأحد أبناء ملوكها، فرع الدوحة الكندية ، وسـليل أمـراء الجزيرة العـربية : كان أبوه إسحـق بن الصباح أميرا عـلى الكوفـة لعهـد ثلاثـة مـن خلفاء العباسيين : المهدي والهادي والرشيد ، وتنتهي سلسلة أجداده لـدى يعــرب ابن قحطان ، وبينهم الأشعث بن قيس من أصحاب النبي ﷺ وكان قبل ذلك ملكـا على كندة كما كان أبوه . ومن أجداد الكندي : معد يكرب وكان ملكا في حضر موت كأبيه . ومعظم أجداد الكندي ملوك بالمشعر واليمامة والبحرين .

وكما يسجل الدكتور «محمد لطفي جمعة» بكتابه : (تاريخ فلاسفة العـرب) : أن مؤرخي العرب لم يذكروا تاريخ ميلاد الكندي ووفاته بالدقـة ؛ ولم يـذهبوا إلى أكثـر من أنه من أهل القرن الثالث للهجرة ، ولكـن عـالمين غـربيين حققـا ذلـك ، فـذكر «فلوجل» أن الكندي عاش في بداية القرن التاسع للميلاد ، ومـات بعـد عـام ٨٦١ م وذكر العلامة «البينوناجي» الإيطالي أحد أساتذة الفلسفة بروما ، المتـوفى في أواخـر القرن التاسع عشر وكان ممن عنوا بتـاريخ الفلـسفة العربيـة ، ونـشر كتبـا للكنـدي باللاتينية : أن وفاته كانت عام ٢٥٨ هجرية أي ٨٧٣ ميلاديـة ، وثبـت أنـه كـان حيـا يرزق عام ١٩٨ هجرية فكأنه عمر نحو سبعين عاما .

قال سليمان بن حسان (وهو ابن جلجل الأندلسى) : إن الكندي كـان بـصريا ، أي من البصرة ، وكان له بالبصرة ضيعة نـزل بهـا ثـم انتقـل إلى بغـداد ، وتخـرج في مدارسها بعد مدارس البصرة ، وكان عالما بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطـق

وتأليف الألحان والهندسة وطبائع الأعداد وعلم النجوم ؛ وقيل إنه كان يملك جانبا من علوم الإغريق والفرس ويعرف حكمة الهنود ، وكان كذلك ملما بإحدى اللغتين الأجنبيتين الذائعتين لذاك العهد وهما : اليونانية والسريانية ، لأجل هذا ندبه المأمون فيمن ندب من الحكماء إلى ترجمة مؤلفات أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان.

وقال «سليمان بن حسان» : « إنه لم يكن في الإسلام فيلسوف قبله ! » ولعله يقصد بذلك أن الكندي أول فلاسفة الإسلام . ثم إن الكندي احتذى في تأليفه حذو أرسطو ، وفسر من كتب الفلسفة الكثير ، وأوضح منها المشكل ، ولخص المستصعب وبسط العويص ، وهذا لعلو إمكاناته في الترجمة ، فقد ذكر «شاذان» في المذكرات عن أبي معشر المشهور عند المصريين بكتاب في التنجيم : « إن حذاق التراجمة في الإسلام أربعة بينهم يعقوب بن إسحق الكندي » .

بيد أن بعض معاصريه نقموا عليه إما حسدا وإما غير ذلك ، ومنهم القاضى أبو القاسم صاعد بن أحمد القرطبى ، قال في كتاب (طبقات الأمم) : « عند الكلام على كتب الكندي في المنطق إنها نفقت عند الناس نفاقا عاما وقلما ينتفع بها في العلوم، لأنها خالية من صناعة التحليل التى لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل في كل مطلوب إلا بها ، وأما صناعة التركيب وهى التى قصد يعقوب في كتبه هذه إليها فلا ينتفع بها إلا من كانت عنده مقدمات عتيدة فحينئذ يمكن التركيب ، ومقدمات كل مطلوب لا توجد إلا بصناعة التحليل . ولا أدري ما حمل يعقوب على الإضراب عن هذه الصناعة الجليلة هل جهل مقدارها أم ضن على الناس بكشفها ، وأي هذين كان فهو نقص فيه ، وله بعد هذا رسائل كثيرة في علوم جمة فيها آثار فاسدة ومذاهب بعيدة عن الحقيقة » .

وتحامل القاضى القرطبى ظاهر على أن هذا لم يكن رأي علماء الإفرنج في الكندي فقد عده «غليوم كرادانو» الإيطالي المتوفى سنة ١٥٧٦ ، بين الاثنى عشر

عبقريا الذين ذكر أنهم أهل الطراز الأول في الذكاء والعلم لم يخرج للناس سواهم منذ بداية العالم إلى نهاية القرن الثالث عشر للمسيح ، وقال «روجر باكون» وهو قس إنجليزي من أهل القرن الثالث عشر للمسيح ، ومن مشاهير القرون الوسطى: « إن الكندي والحسن بن الهيثم في الصف الأول مع بطليموس لاشتهاره بما دونه في علم المرئيات ، وقد نقل بعض رسائله في هذا الباب «جيرار دي كريمونا» .

ويذكر الدكتور «محمد لطفي جمعة» في صفحات كتابه : (تاريخ فلاسفة الإسلام) أن مؤلفات الكندي الفلسفية ، وشروحه لحكمة أرسطو وهي أول ما دونه العرب في هذا الصدد ، نادرة الذكر في كتبهم التي وصلت إلينا ، ونذكر بين مؤلفاته كتابا في قصد أرسطو طاليس في المعقولات وآخر في ترتيب مصنفات أرسطو . وذكر له ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء رسالة « في كمية كتب أرسطو وما يحتاج إليه في تحصيل علم الفلسفة مما لا غنى في ذلك عنه وفي ترتيبها وأغراضه فيها » . وكتاب في قصد أرسطو طاليس في المقولات الموضوعة لها رسالته الكبرى في مقياسه العلمي . ومن كتب أرسطو كتاب (أتلوجيا) وهو قول على الربوبية : تفسير فارفوريوس الصوري ونقله إلى العربية عبد المسيح بن عبد الله ناعمة الحمصي، وأصلحه أحمد بن المعتصم بالله أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندي، وطبع ببرلين عام ١٨٨٢م.

أما تأليفات الكندي فتكاد تشمل سائر العلوم، فقد دون كتبا في الفلسفة وعلم السياسة والأخلاق، وعلم الكريات والموسيقى والفلك والجغرافية والهندسة ونظام الكون والتنجيم، والطب والنفسانيات والأبعاديات والمساكن ألف فيه رسالته الكبرى ورسالة في الربع المكون، وعلم المعادن وفيه رسالة في أنواع الجواهر والأشباه، ورسالة في نعت الحجارة والجواهر ومعادنها وجيدها ورديئها وأثمانها، ورسالة في تلوين الزجاج وأخرى في أنواع الحديد والسيوف وجيدها ومواضع

انتسابها. وألف في الكيمياء رسالة في العطر وأنواعه ورسالة في كيمياء العطر، وأخرى في التنبيه على خدع الكيميائيين ورسالة في الطبيعة ورسالة في الأجرام الغائصة في الماء ورسالة في الأجرام الهابطة ورسالة في عمل المرايا. وله كتب خطية في مكاتب أوروبا ذكرها «بروكلمان» في فهرسته. بيد أن الناظر في مؤلفات الكندي يرى أنها لم تخرج عن حدود العقل، وأخبرنا العلامة «سنتلانا» أستاذ تاريخ الفلسفة بالجامعة المصرية القديمة عام ١٩١١: «أن البينوناجي الذي سلف ذكره نشر عام ١٨٩٧ خمس رسائل فلسفية للكندي أولاها في ماهية العقل ونشرت ترجمتها باللاتينية».

وليس بين مؤلفات الكندي شيء في الدين، بل إنه اشتهر برأي خاص في «واجب الوجود» خالفه فيه المتشددون من أهل عصره، وأخذوا عليه رأيه المذكور الذي أودعه رسالة التوحيد. وقد روى «عبد اللطيف البغدادي» أحد أدباء العرب، ومؤلف «كتاب أخبار مصر» وهو من أهل القرن الثاني عشر ومن الفقهاء المتعصبين، أنه كتب رسالة ضمنها بحثا في حقيقة واجب الوجود وما ينبغي نحو ذاته العلية، وأن غايته من تدوينها نقض ما دونه الكندي من قبل في «رسالة التوحيد» وروى كاتب «مقالة الكندي» في «دائرة المعارف البريطانية » أنه كان أول الثائرين على الإسلام» يقصد المبتدعين. ولكن في هذا مغالاة ؛ فقد سبقه كثير من المعتزلة، كواصل بن عطاء في أوائل القرن الثاني وعمرو بن عبيد والنظام تلميذ ابن الهيثم والجاحظ تلميذه وكلهم سابقوه. على أن خصوم الكندي لم يأخذوا عليه إلا قوله بوحدة «واجب الوجود وبساطة ذاته العلية»، وأن هذا القول أرسطي محض ومعناه: أن القائلين به لا يعترفون لواجب الوجود بصفة مطلقة ، والصفات المطلقة هي المميزة عن الذات، وكان أرسطو - حقيقة - ينكر الصفات ويقول بأنها والذات شيء واحد، وهو القصد من قولهم ببساطة واجب الوجود.

كما يذكر الدكتور «محمد لطفي جمعة» أن المعتزلة والسنيين متفقون في جوهر هذه المسألة. فإن المعتزلة تقول: «إن الله عليم بذاته ، خبير بذاته ، قادر بذاته»، أي: يعلم ويقدر دون الاحتياج إلى صفة. أما الصفاتية وهم جمهور المسلمين فيقولون: «بأن الله عليم بالعلم أي بصفة اسمها العالم، وقادر بالقدرة أي بصفة اسمها القادر»، وأن هذه الصفات ليست منفصلة عن الذات، لأنها لو انفصلت لعادوا إلى رأي المعتزلة وقد يشركون. وحجة المعتزلة فيما سبق بيانه : أن القول بالصفات يثبت ثلاثة عشر قديما (الصفات المشهورة ثلاث عشرة : خمس سلبية وواحدة نفسية وسبع معان). على أن المعتزلة إذا سئلوا قالوا: إن الله قادر فهم متفقون ومع جمهور المسلمين في الجوهر كما أسلفنا.

أول أعداء الكندي من معاصريه هو «أبو معشر». روى ابن النديم البغدادي الكاتب المعروف بابن أبي يعقوب في كتاب (الفهرست) «أن أبا معشر وهو جعفر بن محمد البلخي من أصحاب الحديث أولا وكان منزله في الجانب الغربي بباب خراسان ببغداد، وكان يضاغن الكندي ويغري به العامة، ويشنع عليه لأخذه بعلوم الفلاسفة، فلما رأى الكندي منه ذلك أراد أن يقطع نفسه شره بما ينفع أبا معشر ولا يضره، فدس عليه من حسن له النظر في علم الحساب والهندسة فاشتغل بهما، ولكنه لم يوفق فيهما فعدل عنهما إلى علم أحكام النجوم فانقطع شره عن الكندي بنظره في هذا العلم وقد تعلم علم أحكام النجوم بعد سبع وأربعين سنة من عمره» وأمسى من تلاميذ الكندي بعد أن كان من ألد أعدائه!

روى أبو جعفر بن يوسف في كتابه (حسن العقبى) عن أبي كامل شجاع ابن الحاسب « أنه كان لعهد المتوكل أخوان شريران : محمد وأحمد ابنا موسى ابن شاكر، وكان هذان الشقيقان يكيدان لكل من ذكر بالتقدم في علم أو معرفة، فلما ذاع فضل الكندي غاظهما ذلك وأرادا الوقيعة به لدى المتوكل ، وكان للكندي نصير في بلاط الخليفة، وهو سند بن علي فباعداه عن المتوكل ووجهاه إلى مدينة السلام،

فلما خلا لهما الجو دبرا للكندي مكيدة ، فضربه المتوكل ووجه إلى داره أفرادا فأخذوا كتبه بأسرها في خزانة سميت «الكندية».

وقد ردت له هذه الكتب بخبر غريب وهو أن الشقيقين كانا يعملان للانفراد بالمتوكل وإبعاد أهل الفضل عنه، والحصول على ما يستطيعان من المال، فكشف أمرهما في حفر النهر المعروف بالجعفري ، فإنهما أسندا حفره إلى مهندس معرفته أوفى من توفيقه، فغلط في فوهة النهر، وأتلفا جملة من مال المتوكل فأقسم أن يصلبهما على شاطئه إن كان ما بلغه عن الغلط حقا، فتوسلا إلى سند بن علي الذي ما تركا شيئا من سوء القول إلا ذكراه عند المتوكل به، فقال لهما سند بشمم أهل الفضل: «إنكما لتعلمان ما بيني وبين الكندي من العداوة والمباعدة ولكن الحق أولى بأن يتبع، والله لا أذكركما عند المتوكل بصالحه حتى تردا عليه كتبه!» فتقدم محمد بن موسى في حمل الكتب إليه وأخذ خطه باستيفائها، فوردت رقعة الكندي بتسلمها عن آخرها، وقال سند للمتوكل: إنهما ما غلطا لينقذهما من العقاب. ومات المتوكل بعد ذلك بشهرين قبل أن يظهر غلط الحفر في النهر.

اعتاد مترجمو الحكماء رواية بعض أقوالهم في الحكمة العامة للاستدلال على آرائهم، ويغلب أن يكون المنقول من الحكم الذائعة على ألسنة الأدباء ذكرت للإسهاب، أو دست على الرواة ، فقد قرأت حكما نسبت لسقراط، وقرأتها بعينها منسوبة لكونفوشيوس ولقمان وغيرهما، ومثل هذا كثير ولا أظن أنه يؤخذ به في تقدير المنسوب إليه أو في الحكم عليه.

والأقوال المروية عن الكندي تنقسم من حيث شكلها قسمين نثرا وشعرا، والنثر عن ثلاثة أمور: الأول نصيحة للطبيب، والثاني في الحث على التواضع، والثالث في التحذير من الأقارب.

قال في وصيته: «ليتق الله تعالى المتطبب ولا يخاطر، فليس عن الأنفس عوض!». وقال: «كما يجب أن يقال كان سبب عافية العليل وبرئه، كذلك فليحذر أن يقال إنه كان سبب تلفه وموته» وكان رحمه الله طبيبا ، ونصحه صالح لكل زمان!

إلا أن هذا الفيلسوف المجدد كانت تعتريه حالات نفسية حزينة تجعله متشائما في بعض الأحيان ، فيشك فيمن حوله لو كانوا من أقرب الناس كأن يقول يوصى ولده: «يا بني ، الأب رب، والأخ فخ، والعم غم، والخال وبال، والولد كمد، والأقارب عقارب».

والآن .. لعلنا بعد ذلك نتوقف عند المواقف التجديدية للكندي الذي لا يذكره المتقدمون بين مجددي القرن الثالث مع أنه جدير بالذكر لما قدم من جهود تجديدية. كما يذهب الأستاذ «الصعيدي» - جعلته أول من استحق من المسلمين لقب «فيلسوف العرب» فتآخى فيه الإسلام والفلسفة وفتح الباب على مصراعيه في هذا المجال ، من بعده أدرك المسلمون أن الإسلام لا يعادي الفلسفة فأقبلوا عليها. حتى نبغوا فيها وصار منهم فلاسفة كبار تفخر البشرية كلها بانتسابهم إليها، حين قام الفكر الأوروبي الحديث على جهودهم.

وعلى الرغم من أن لفيلسوف العرب - الكندي - العديد من المواقف التجديدية الإيجابية إلا أن موقفه كان سلبيا من مشكلته مع الخليفة المتوكل ؛ حيث لم يتعد هذا الموقف أكثر من حدود تعرفه على الداء ، ولم يحاول أن يقدم الدواء بمعنى تنبيه الأمة بذلك الفساد السياسي والاجتماعي.

ومع ذلك : فإن إسهامات الكندي في مجال الفلسفة تعد فتحا جديدا في الثقافة العربية، ولعل ما ساعده على ذلك ثقافته التي تكونت من تحصيل العلوم العربية في البصرة، ثم الاطلاع على كتابات فلاسفة اليونان في لغتها الأصلية مترجما بعضها ومهذبا البعض الآخر.

وهكذا .. كان الكندي ملما بعلوم عصره ، وكان ينزع من آرائه نزعة المعتزلة. حيث كان يقول بالعدل والتوحيد وحال التوفيق بين النبوة والعقل. وقارن بين الملل المختلفة مقارنة انتهت به إلى أنها مجمعة على الاعتقاد بأن العالم صادر عن علة أولى هو الله.

ومدار فلسفة الكندي مدار تجريدي في عصره ؛ حيث يدور حول الرياضيات والفلسفة الطبيعية، وعادة فإن الإنسان لا يكون فيلسوفا إلا إذا درس الرياضيات، ولهذا نراه يطبق الرياضيات في بحوثه الطبية وفي دراسته للموسيقى ؛ حيث كان يرى أن كلا من الطب والموسيقى يقوم على التناسب الهندسي، فالأدوية قوامها تتناسب في الكيفيات الأربع : (الحار والبارد والرطب واليابس).

ولا يمكن لفيلسوف العرب الكندي - الذي عاش في جو العرب من أخذ ورد، وشهد مجالس الخلفاء التي كانت تعقد لمناقشة بعض القضايا الدينية والفلسفية - أن يعيش بمعزل عن التجديد الذي كان يشمل مناحي الحياة في هذا القرن الثالث الهجري، وبهذا .. يكون واحدا من المجددين في الإسلام.

* * *

obeikandl.com

الإمام مسلم

ولد الإمام مسلم بن الحجاج بنيسابور عام ٢٠٤ وتوفي عام ٢٦١ هـ ولذلك فهو من مجددي القرن الثالث الهجري، ومع أنه نشأ نشأة دينية في نيسابور وولد فيها، فهو ينتمي إلى أصل عربي، لأنه ابن من أبناء بني قشير، وهي قبيلة عربية، فهو يشبه الإمام أحمد بن حنبل إذ ولد بخراسان، وهو شيباني من أسرة عربية، ويظهر أن أسرته آوت إلى تلك البلاد النائية طلبا للراحة والاطمئنان، ولم يكن له صلة بأهل السلطان كأكثر هذه البلاد.

وقد حفظ القرآن الكريم وتعلم أصول الدين وأخذ الفقه عن المذهب الشافعي، وإن كان له اجتهاد يخرجه عن أن يكون مقلدا، وذلك لأن مذهب الشافعي كان منتشرا في تلك الجهات ولم يكن يغالبه في السيطرة والنفوذ سوى المذهب الحنفي، الذي كان مذهب الدولة، بيد أن المذهب الشافعي كان يستمد قوته من الشعب وإيثاره له، والمذهب الحنفي يستمد قوته من السلطان، ولكن المناظرة كانت تعقد حرة بين مذهبين سنيين يلتقيان في زاوية رأسها الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح رضى الله عنهم، ولم يكن انفراج كبير في خطي الزاوية، بل إن خطيها متقاربان، لا يبتعدان.

وكما يذكر الشيخ محمد أبو زهرة : بعد أن أعد العدة، وأخذ الأهبة، وصار فتى سويا اتجه إلى الحديث بكليته، والحديث فيه علم الإسلام، والتقى بكبار المحدثين في نيسابور حتى جمع الرواية عنهم كاملة غير منقوصة، وقد أخذ عنهم أخذ متقن ملازم، فلما استوفى وقوي عوده، رحل إلى البلاد الإسلامية يطلب الحديث من

مواطنه وأهله، ويأخذه عن رجاله، فسافر إلى الأقطار الإسلامية في طلب الأئمة، فارتحل إلى خراسان، وذهب إلى الري، وإلى العراق، وأخص من التقى به وأخذ عنه الإمام أحمد، وكان في أوجه، وقد تسامعت به البلاد، ثم رحل إلى الحجاز يطلب الحديث فيه مع موسم الحج، ويروي عن كبار المحدثين فيه. ولم تقف رحلته عند حد العراق، بل رحل إلى الشام يأخذ من محدثيها، وإلى مصر، ولعله كان يأخذ في مصر علمين: علم الحديث عن الرواة، وعلم الفقه عن تلاميذ الشافعي الذين كانت مصر لهم مستقرا ومقاما.

وعندما زار الإمام البخاري نيسابور التقى به مسلم وأخذ عنه وأعجب به أشد الإعجاب، ولازمه، وأدام الحضور إلى مجلسه. ولما استمع إليه أحبه، وتعصب له، حتى لقد روى الرواة أنه بعد أن استمع إليه قبل ما بين عينيه ، وقال له : « دعني يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين وطبيب الحديث في عالمه ».

وقد بلغ مسلم بن الحجاج الشأو في الرواية بعد أن طوف في البلاد مشرقا ومغربا، مختلفا إلى مجالس الرجال، وهو يتلقى عنهم، وينقدهم، وينقد ما ينقلون نقد الصيرفي للدراهم، يدفع زيفها، ويقبل جيدها وينقل إلى غيره ما يراه أكيد الصدق في النقل عن رسول الله ﷺ.

فهو لا يأخذ إلا عن الثقات الصادقين الأمناء أهل الاستقامة، ويوجب على طالب الحديث أن يبتعد عن أهل التهم، يتقيهم، ويقول في ذلك رضي الله عنه: «اعلم وفقك الله ، أن الواجب على كل أحد عرف التمييز بين صحيح الروايات وسقيمها، وثقات النقالين لها من المتهمين، أن ينقي منها ما كان من أهل التهم، والعائدين من أهل البدع، والدليل على أن الذي قلنا هو اللازم دون ما خالفه، قول الله جل ذكره : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا

بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾[1] وقال جل ثناؤه: ﴿ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾[2] وقال عز وجل: ﴿ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾[3] وما ذكرنا من هذه الآي يدل على أن خبر الفاسق ساقط غير مقبول، وأن شهادة غير العدل مردودة».

فهو يشترط فيمن يروي عنهم من معاصريه أن يكونوا معروفين بالصدق، والعدالة، والاستقامة وألا يكون غرامهم كثرة التحديث من غير أن يعرفوا السقيم من الصحيح، بل إنه يتخذ من الإكثار دليلا على عدم الإتقان، ويروي في ذلك قول النبي ﷺ، «**كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع**».ويروي عن عمر ابن الخطاب قوله: «يحسب للمرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع».

وكان يأخذ من كثرة الحديث دليلا على عدم التحري في صدق ما ينقل عن الرسول ﷺ، ويذكر عن نفسه أنه اختار كتابه من بين ثلاثمائة ألف حديث بعد أن اختبر صدق ما أخذه ورواه، فلم يكن همه لا هو ولا غيره من المحدثين الإكثار والجمع، كما افترى بعض المستشرقين، بل كان همه التحري، وعرف الصحيح، ورد السقيم.

وكان يبعد من روايته الأخبار الغريبة التى لم تستأنس بمثلها، أو التى تكون في ذاتها غريبة على المعقول، ويروي عن ذلك قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لهم فتنة».

وكان رضى الله عنه لا يقبل حديثا ممن كان يغتاب الناس، وخاصة العلماء، ذكر «الخطيب البغدادي» أن مسلم بن الحجاج كان يدافع عن البخاري في قوله بالنسب للقرآن، وكان محمد بن يحيى الذهلى من شيوخه ينال من البخاري لرأيه، وقال يوما لأهل مجلسه، وفيهم مسلم: «من كان يقول بقول البخاري في مسألة اللفظ بالقرآن،

---

(١) الحجرات: ٦.

(٢) البقرة: ٢٨٢.

(٣) الطلاق: ٢.

فليعتزل مجلسنا»، فنهض مسلم من فوره إلى منزله، وجمع ما كان سمعه من الذهلي، وأرسله إليه، وترك الرواية عنه، واستحكمت الوحشة بينهما.

وكان من الغريب أن البخاري، الذي قيل فيه ما قيل، لم يترك الأخذ عن محمد ابن يحيى هذا، بل روى عنه في صحيحه وعذره. إن هذا الخبر يدل على قوة التحري، والإخلاص للعلماء عند مسلم، ويدل على السماحة عند البخاري، وأخذه بالعفو وترجيحه على سواه.

ويذكر الشيخ محمد أبو زهرة أن الإمام مسلم يشترط في الرواية أن يكون السند متصلا ، فيعد من الضعيف الحديث الذي يرويه التابعي ، ولا يذكر الصحابي الذي روى عنه، ويسمى المرسل، كما لا يروي الخبر الذي ينقطع في إحدى طبقاته، ويروى في ذلك أن عبد الله بن المبارك رد الخبر المروي عن الحجاج بن دينار أن النبي قال: «**أن تصلي لأبويك مع صلاتك، وأن تصوم لهما مع صومك**»، فقد قال ابن المبارك: «إن بين الحجاج بن دينار وبين النبي ﷺ مفاوز تنقطع فيها أعناق المطي». إشارة إلى بعد الزمان والمكان.

وعلى هذا .. فإن مسلما يقسم المحدثين الذين التقى بهم وتتبع إسنادهم إلى ثلاثة أقسام، ويجعل كل قسم طبقة تليها أخرى، فأهل الطبقة الأولى : الذين عرفوا بالاستقامة والإتقان لما ينقلون، ومن ينقلون عنهم ، لم يوجد في رواياتهم اختلاف ولا تخليط، ولا في إسنادهم ضعف، بل صدق، وهؤلاء تقدم رواياتهم على غيرهم.

والقسم الثاني : من لم يعرف عنهم كذب ، ولا انحراف عن الجادة ، ولكن لم يعرفوا بالإتقان في الرواية والسند ، وهم طبقة دون الأولى، وتقدم الأولى عليها إن كان تعارض ، فهم في منزلة دون منزلتهم . ويروى في ذلك حديث عائشة عن النبي ﷺ ، إذ قالت: «**أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم**».

والقسم الثالث : من لا يقبل حديثهم، وهم المتهمون عند أهل الحديث، أو عند الأكثر منهم، وكذلك من يكون الغالب على حديثه المنكر الذي يخالف المعروف عن الثقات أو من يكثر عنده الغلط، فإن هؤلاء لا يروى عنهم أيضا.

بهذه الدقة في اختيار من ينقل عنهم ، روى الأحاديث التي اشتملت عليها كتبه، ولكن أهل الخبرة كانوا يرون أن البخاري قد اشترط فيمن يأخذ عنه ما لم يشترط مسلم، فالبخاري اشترط الإتقان والصدق والعدالة والضبط والحفظ كما اشترط مسلم، بيد أن البخاري، اشترط الملازمة لمن يروى عنه، لأن بالملازمة أمدا غير قصير يتعرف حاله بالعيان، لا بالخبر، بينما اشترط مسلم أن يلقاه، وأن يكون في عصر واحد، ولا شك أن مجرد اللقاء دون الملازمة.

ويقارن الشيخ أبو زهرة بين البخاري ومسلم قائلا : «وإذا كان البخاري في روايته يمتاز على مسلم بهذه الميزة التي توثق الرواية أشد توثيق، فمسلم يمتاز على البخاري بجودة التصنيف، وحسن الترتيب، وقد بدا ذلك في كل مؤلفاته ».

ومن كتبه : (السند الكبير على أسماء الرجال)، وكتاب (الجامع الكبير على الأبواب)، وكتاب (العلل)، وكتاب (أوهام المحدثين)، وكتاب (التمييز)، وكتاب (من ليس له إلا راو واحد)، وكتاب (طبقات التابعين)، وكتاب (المخضرمين).

ولكن كتابه العظيم الذي خدم به الإسلام، وناظر البخاري به في كتابه، هو (الصحيح)، والأكثرون من العلماء أجمعوا على أن كتاب البخاري أوثق رواية، وكتاب مسلم أحسن تبويبا وترتيبا، وقد بالغ علماء المغرب وبعض علماء المشرق في تقدير كتاب مسلم، حتى قدموه على البخاري، ولكن الجمهور الأعظم من المحدثين على غير ذلك.

وإنه مما أخذ على الإمام البخاري تكراره الحديث الواحد في عدة مواضع، وأحيانا يذكر بعض الحديث في موضع، وبعضه في موضع آخر، وقد تحاشى ذلك

الإمام مسلم في صحيحه، فلم يكن فيه تكرار، إلا ما تضطر الضرورة إليه، وقد ذكر هو ذلك في مقدمة صحيحه، فقال رضى الله عنه: «نقسمها إلى ثلاثة أقسام، وثلاث طبقات من الناس من غير تكرار إلا أنه يأتي موضع لا يستغنى فيه عن ترديد حديث فيه زيادة معنى، أو إسناد يقع إلى جنب إسناده لعلة تكون هناك، فلابد من إعادة الحديث الذي فيه ما وصفنا من الزيادة، أو أن يفصل ذلك المعنى من جملة الحديث على اختصاره إذا أمكن، ولكن تفصيله ربما عسر من جملته، فإعادته إذا ضاق ذلك أسلم».

ومؤدى هذا الكلام أنه لا يعيد إلا إذا كانت ثمة زيادة لا تفهم من غير ذلك الحديث كله، أو يكون هناك إسناد يقوي الإسناد الذي يكون فيه علة قد تنزله عن درجته، فيذكر الإسناد الجديد ليعلو به أو تكون إحدى الروايتين فيها اختصار، والأخرى فيها تفصيل فيذكر المفصل، إذ يضيق المختصر عن أن يشمل كل المعاني.

وهكذا .. استمر الإمام مسلم رضى الله عنه في طلب الحديث وتحريره، وتخليص أحاديث رسول الله ﷺ، بل رد كل ما لم يكن الراوي فيه يطمئن إلى روايته، وكل ما يكون غريبا لم يستأنس بالمعروف من أحاديث رسول الله ﷺ حتى حضرته الوفاة.

وقد أجمع العلماء على دقته وحذقه : نبوغه وبراعته في علم الحديث ، وأكبر دليل على ذلك كتابه (الصحيح) الذي لم يوجد كتاب قبله ولا بعده من حسن الترتيب والاعتناء بالتنبيه على الروايات المصرحة بسماع المدللين عليها كما ذكرنا من قبل...

وعلى الجملة .. فقد كان من أئمة الحديث وأكبر المبرزين فيه وأهل الحفظ والإتقان، والرحالين في طلبه إلى كل الأمم والأقطار حتى يضمن الصحيح الذي لا يتسرب إليه أي شك وفرز الأصيل من الدخيل... وهو ما جعل عمله موثوقا به تمام الثقة.

* * *

obeikandi.com

أبو بكر الرازي

أبو بكر الرازي من مجددي القرن الثالث الهجري ؛ حيث أقبل على دراسة كتب الفلسفة والطب دراسة رجل يريد العلم لذاته حتى كان إماما في الفلسفة، كما كان كذلك ، وأكبر في الطب حيث كان أشهر أطباء عصره.

ولقد ولد أبو بكر، محمد بن زكريا الرازي، في الري على مقربة من طهران، نحو عام ٢٣٦ هـ (٨٥٠ م)، ونزح إلى بغداد فتعلم الطب، فكان عارفا بطب الإغريق، وطب الهند. يقول عنه «القفطي» صاحب (أخبار العلماء بأخبار الحكماء): إنه دبر بيمارستان الري، ثم بيمارستان بغداد، والبيمارستان هو المستشفى، وإنه كان طبيب الدولة العربية الإسلامية الأول بغير منازع.

ومما يحكى تدليلا على صحة إدراكه الطبي، أنه لما أراد أن يختار موضعا لمستشفى بغداد، ذهب إلى نواح منها يطلب أصحها هواء، وأطهرها جوا، فعلق قطعا من اللحم في جهات من بغداد متفرقة، فالموضع الذي بقيت فيه قطع اللحم أطول مدة، دون أن تفسد، فذلك هو الوضع الذي اختاره لبيمارستانه. وأبو بكر تعلم الكيمياء على حداثته، ونشأ فيها، وعمل وألف، قبل أن يتفرغ للطب، وعرف بها.

وقد اكتشفوا له حديثا كتابه المسمى بكتاب (الصنعة)، وجدوه في بيت أمير هندي. وقد وجدوا فيه أن الرازي اعتمد في الكيمياء على ما اعتمد عليه « جابر ابن حيان، إلا أنه كان أكثر واقعية من جابر. فهو لما قسم المواد، قسمها لا كما قسم جابر وتلاميذه إلى أجسام وأرواح وأهوية، ولكن إلى : نباتي وحيواني ومعدني. وجرت هذه التعابير على ألسنة الناس إلى اليوم. وقد جمع إلى الطب العلم بالكيمياء،

وبالفلسفة، وبصنوف أخرى من المعرفة ، حتى بلغت مؤلفاته مائتين، فما فوقها، نصفها في الطب.

وأكبر مؤلفاته الطبية : (الحاوي)، سمي هكذا لأنه حوى كل شيء. وهو موسوعة زادت مجلداتها على العشرين، وهي من الاتساع بحيث لم يكتب مثلها في الطب كاتب واحد قط. وهي تجمع طب الإغريق ، إلى طب غير الإغريق ، إلى طب العرب، إلى طب الرازي نفسه ، وإلى ما رأى في طب غيره. ومما يؤسف له ، أنه على مقدار علمنا، لا يوجد اليوم من هذه الموسوعة إلا عشرة مجلدات، موزعة بين المكتبات.

وترجم الحاوي في عصر النهضة الأوروبية إلى اللاتينية، ترجمه «فرج بن سالم الإسرائيلي»، بأمر من شارل الأول، ملك نابلي وصقلية ، وفرغ من ترجمته عام ١٢٧٩م ، ونسخ الحاوي بعد ذلك نسخا كثيرة دارت في أوروبا فيما تلا ذلك من قرون. وجاءت المطبعة الحديثة فطبع الحاوي، ما بين عام ١٤٨٦ ، وعام 1542م على كثرة النفقات ، خمس طبعات ، عدا ما طبع منه مفرقا ، وكان أثر هذا الكتاب في أوروبا بالغا إلى فجر عصورنا العلمية الحديثة .

وغير الحاوي ، كان للرازي تأليفات كثيرة ، في أمراض عالجها فرادى ، من ذلك كتاب له في الحصى في الكلى والمثاني . ومن أشهر كتبه كتابه في الجدري والحصبة، الذي ترجم إلى اللاتينية ، وخرجت منه أربعون طبعة بين عام 1498 وعام ١٨٦٦م، أي أن آخر طبعة منه كانت منذ قرن مضى، وإن دل هذا الكتاب على شيء ، فهو يدل على ما كان للرازي من دقة في الملاحظة وعلم بالطب واسع.

وكان الرازي في الطب أبا قراطيا نسبة إلى أبي قراط المذهب ، جالينوسيه ، ولم يمنعه ذلك من نقد صاحبيه عندما رأى موضعا للنقد، وألف كتابا أسماه

(الشكوك على جالينوس)، وفيه يعتذر عن مناقضته لرجل له من الاسم والشهرة ما لجالينوس، وهو عدا هذا يقع منه موضع التلميذ من أستاذه. ثم هو يعود فيقول: ولكن الفلسفة تأبى التسليم للأستاذ، فإن ذلك فيه وقوف بالعلم، وذكر أن جالينوس نفسه لام من يطلب من الأساتذة والرؤساء التسليم من تلامذتهم والمريدين بغير حجة تقنع، أو برهان يدفع.

وهناك موقف لأبي بكر الرازي في الطب، وقف مثله الإمام أبو حنيفة في الفقه، إذ رأى رأيا، فقيل له: ولكن من قبلك فلان رأى وفلان رأى. فقال: هؤلاء رجال ونحن رجال. قولة لا تزال ترددها الأجيال ، فياليت المقلدين منا قرأوا، وإذا قرأوا وعوا، وإذا وعوا انتفعوا.

ومن مؤلفات الرازي في الطب ، مؤلفات على هامش الطب، كشفت عما عنده من فهم أحوال الناس، ومنها «كتاب في الطب الروحاني»، و «كتاب في الأسباب المميلة لقلوب الناس عن أفاضل الأطباء إلى أخسائهم»، و«كتاب التلطف في إيصال العليل إلى بعض شهواته»، و«كتاب يؤكد أن الطبيب الحاذق لا يقدر على إبراء جميع العلل»، وكتاب «لم صار جهال الأطباء والنساء في المدن أكثر من العلماء؟». وهو ما يؤكد المقولة الاقتصادية : «السلعة الرديئة تطرد السلعة الجيدة من الأسواق».

وكان الرازي ، إلى جانب ممارسته الطب، وإلى جانب التأليف في الطب، يدرس الطب لتلاميذه. قال أبو الحسن الوراق: قال لي رجل من أهل الرأي، شيخ كبير، سألته عن الرازي فقال: كان شيخا كبير الرأس.

وكان يجلس في مجلسه ودونه تلاميذه، ودونهم تلاميذهم، ودونهم تلاميذ آخرون. وكان يجيء الرجل، فيصف ما يجد لأول من يلقاه منهم، فإن كان عنده علم، وإلا تعداه إلى غيره ، فإن أصابوا، وإلا تكلم الرازي في ذلك.

وكان كريما متفضلا، بارا بالناس حسن الرأفة بالفقراء والأعلاء، حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة، ويمرضهم . ولم يكن يفارق النسخ إما : يسود أو يبيض.

وكان إلى جانب طبه، إنسانا رقيق الحاشية، رقتها لا شك فيها رقق، تعرفه وتعلمه الغناء والموسيقى في حداثته الأولى. وكان يضرب بالعود ويغني، فلما خرج شاربه والتحى، كف، وسئل في ذلك فقال: إن الغناء الذي يخرج من بين شارب ولحية لا يستعذب!.

وللرازي تجديد في الفلسفة اليونانية وإصلاحها سبق به فلاسفة الإسلام جميعا. وقد عرفت أوروبا في عصر النهضة للرازي كبير فضله، فترجمت كتبه إلى اللاتينية للاستفادة مما فيها من علم كان يومئذ جديدا عليهم، وطبعتها عدة مرات، وظلت جامعات الطب تعتمد عليها زمنا طويلا. وكانت كتبه مع كتب ابن سينا أساسا للتدريس في الجامعات الأوروبية في القرن السابع عشر الميلادي ، ولم تنل مؤلفات فلاسفة اليونان الطبية مثلما نالته كتبه من الحظوة إلا قليلا، إذ اقتصر أمرها على بعض جوامع الكلم لأبي قراط، وبعض الخلاصات لجالينوس.

* * *

ابن سريج

القاضي البغدادي : أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج من مجددي القرن الثالث للهجرة ، حيث توفي عام 307 هـ كما يقرر كل من جلال الدين السيوطي بكتابه (التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مئة) وأمين الخولي بكتابه (المجددون في الإسلام)، حيث يتفقان على أنه كان من أبرز وأشهر علماء زمانه ، وعلى وجه الخصوص أبرز فقهاء المذهب الشافعي ، حين بلغ في هذا المذهب شأوا عظيما بسببه لقب بالشافعي الصغير ، هذا إلى جانب وصفه بالإمام المطلق .

عاش هذا العالم والفقيه الجليل في المنطقة الشرقية من الدولة الإسلامية ، ما بين فارس والعراق ، وأجاد أهم وأبرز علوم زمانه ، وفي مقدمتها علوم الحساب والفقه والكلام ، وبرع في الجدل حتى إنه قال : « ما رأيت من المتفقهة .. من اشتغل بالكلام والجدل وأفلح .. » إشارة إلى مناظراته مع علماء الكلام والجدل وتفوقه عليهم ، حتى إنه كان يحكم بأنهم أقل منه في المستوى العلمي ، وإلا فلماذا لا يصمدون في حواراتهم معه ، وبأنه على درجة عالية تؤهله لأن يتفوق على غيره .

بدأ هذا العالم فقيها كما يفهم من المعنى التقليدي لعلم الفقه ، حيث كان يشارك في تنظيم أحكام الحياة العملية ، ولذلك تولى من الوظائف وظيفة القضاء فترة من الزمن في شيراز بفارس إلى أن تقدمت به السن ، واتسعت رؤيته ، وامتدت بصيرته فانتهى إلى شيء من التصوف الروحي ، لعل استعداده الفطري ساعده على ذلك وجعله يتمادى فيه ، حتى إذا قدم إلى بغداد في العراق ، ويعرض عليه قضاء القضاة

فيها فيرفضه من الوزير الذي عرضه عليه تقديرا لعلمه وشهرته في النزاهة التي امتدت من فارس إلى العراق .

وحاول معه الوزير مرات ، ولكنه بقي على رأيه في الامتناع والرفض ، الأمر الذي اضطر الوزير أن يقول له : « إذا لم تمتثل لما قلته لك ، وإلا أجبرتك عليه » .

فرد عليه ابن سريج غير عابئ بما قاله الوزير : « افعل ما بدا لك » .

وغضب الوزير الذي كان يحكم في ذلك العهد بأمره ، وأصدر أمرا مؤداه أن يغلق عليه باب بيته بالمسامير فلا يستطيع أن يبارحه ، فيكون ذلك أقسى من السجن حتى يقبل . لكن ابن سريج أصر على رأيه في رفض المنصب الذي عرضه عليه الوزير ، ولم ترهبه هذه العقوبة أو أكثر منها حتى لو أمر بقتله .

وحين عاتبه الناس على تشدده في رفض هذا المنصب الذي يتمناه أي عالم في الدولة . فإذا به يرد عليهم مسببا ذلك بقوله : « أخشى أن يسمع الناس أن رجلا من أصحاب الشافعي عومل على توليه القضاء بهذه الطريقة ، وهو مصر على إبائه ؛ زهدا في الدنيا » .

وتفسير ذلك : ربما لنزعة التصوف التي كان عليها وقتئذ ، أو أنها صورة العالم الحقيقي التي وصل إليها هذا العالم بعد توليه القضاء في صدر شبابه ، وإدراكه ما يساور القائم بهذه الوظيفة من القلق في كل حكم يقضي به . وهكذا كان رفضه لهذا المنصب بعد تقدمه في العمر وزهده فيه ، رضى لنفسه ، هذا إلى جانب رغبته الأكيدة في تحطيم هذا النوع من التحكم الذي بدا عليه سلوك الوزير في عرضه لهذا المنصب ، وحتى يكتشف الناس بأن هناك زاهدا تحداه ، وأبى أن يتولى ما عرضه عليه على الرغم من العنف الذي صاحب هذا العرض . يضاف إلى كل ذلك الحرج من ولاية القضاء في كل عصر إشفاقا من تبعاته الثقال ، وأعباء العدالة التي جعلت قاضيين في النار وقاضيا في الجنة .. خاصة لو كان من يعرض عليه هذا المنصب على النحو الذي

كان عليه ابن سريج من علم وفضل ، وزهد وتصوف .. عندئذ لابد عليه من التريث الذي قد يصله إلى مثل هذا الإباء والرفض .

وهكذا.. كان ابن سريج كما يكون العالم دائما في معاملته، يترفع حتى مع الوزير فلا يزوره ، ولا يطلب منه شيئا ، وهنا يميل الوزير عنه بحكم غطرسته وتكبره ؛ واعتقاده بأنه يملك الدنيا ومن عليها ، ويأمر فيطاع .. ولكن كل هذا لا يعني العالم الحقيقي .

وإزاء هذا الرفض منح هذا الوزير المستبد رضاه لفقيه آخر من المذهب المالكي نكاية في ابن سريج ومذهبه الشافعي ، خاصة وأن هذا الفقيه المالكي يتردد عليه ويطلب رضاه ، فيوليه منصب القضاء الذي عرضه من قبل على ابن سريج فيسارع بقبوله بسعادة غامرة .

وتدور الأيام ، وإذا بهذا القاضي - صديق الوزير الحاكم المستبد - يتورط في فتوى يخالف فيها جماعة العلماء إرضاء للوزير واعتزازا بصداقته ، ضاربا عرض الحائط بزملائه من الفقهاء ، ويشكو من ذلك الجميع بما فيهم العلماء والفقهاء وأهل الشريعة في البلاد ، وهنا يقتضي الأمر عقد مجلس عام لكل فقهاء البلاد ، ويكون ابن سريج حاضرا فيه ، وجالسا في صمت ، فلا يتحدث ولا يناقش ولا يعلق على الرغم من أن الضجيج عال من حوله ، والنقاش حاد أمامه .. وهو على هذه الحالة من الصمت والسكوت ، فيطلب الوزير منه أن يتكلم ، أن يدلو بدلو في هذا المجال. ويتكلم ابن سريج - وهو الفقيه الشافعي - بما يحسم الأمر في مسألة فقهية مع هذا القاضي المالكي قائلا : « إن ما أفتى به قول عدد من العلماء ، وأعجب ما في الموضوع أنه قول الإمام مالك نفسه ، وهو مسطور في كتابه الفلاني ..

ويأمر الوزير بإحضار الكتاب المالكي الذي أشار إليه ابن سريج ، فيكون الأمر كما قاله .. ويعجب الوزير من تعرف وحفظ ابن سريج في غير مذهبه ، وغفلة

صديقه القاضي لما يفتى به مذهبه المالكي .. وهكذا يقدم هذا المجدد مثلا للعالم في زهده وتصوفه وفي تعامله مع منافسيه من العلماء والفقهاء ، ولعل المثل في ذلك هو تنافسه مع محمد بن داود الظاهري الذي كانت بينهما مساجلات ومناقشات كثيرة ، وصلت إلى أن يؤلف كل منهما كتابا ليرد عليه الآخر ، وكثيرا ما كان ابن سريج يتفوق عليه في المناظرات المشهورة ، والمجالس المروية .. لكن عندما يموت ابن داود الظاهري قبل ابن سريج ، فإذا هو يحول مجلس العلم الذي كان يقيمه إلى مجلس للعزاء في معاصره ومنافسه ، ويجلس لتقبل العزاء فيه ، وينقل ما معناه متسائلا على لسان ابن داود : كيف يأكله التراب ؟ فهكذا تترفع النفوس الكريمة ، وتقدر مخالفيها حين تعرف فضائلهم ، فيسمون على بشريتهم الضعيفة .

وهناك جانب في شخصية ابن سريج العالم المجدد ، لعل ذلك يبدو في شعره الذي كان ينحو إلى الحب والجمال .. وكأنه كان يترسم أسلوب إمامه صاحب المذهب الشافعي حيث كان شاعرا وله ألوان كثيرة ، حتى إنه لقب بالإمام الشاعر ، وهكذا كان ابن سريج .

وتفسير ذلك : أن أولئك العلماء والفقهاء يفهمون الحياة فهما يصلها بالدين ، ويصل الدين بها . ويعلم من لا يعرف كيف يكون العالم الفقيه الزاهد المتصوف حساسا لما حوله .. وبمثل هذا تتجدد الحياة بعمل وأسلوب أولئك المجددين الكرام.

وهكذا .. كان ابن سريج بالنسبة لمعاصريه ، فقالوا عنه : « عالما في شخص ، وأمة في نفس ، وإمام الدنيا بالإطلاق ، وشافعي عصره بالإطباق » .

* * *

الطـــبري

ولد الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في مدينة آمل عاصمة طبرستان في أواخر عام ٢٢٤ هـ وتوفي عام ٣١٠ هـ، ولذلك ، فمجال عمله كان في القرن الثالث الهجري، أي : إنه من مجددي هذا القرن. ولعل أهم ما تركه هذا الإمام الجليل هو تفسيره وتاريخه وبهما يعرفنا تاريخنا الإسلامي.

وكما يذكر الأستاذ «محمد خليفة التونسى» في مجال التعريف به مشيرا إلى أن «أخباره لقلتها وتفرقها لا تكفي لتكوين قصة حياته أو سيرته، وإن أغنت في رسوم صورته الشخصية»، وسنتوخى له هنا صورة مصغرة لضيق المقام.

ويبدو من كل هذه الأخبار كأنما نذره القدر منذ صباه، لأداء «رسالة دينية» مقدسة ، فهيأه لها بمأثورات أسرته وبشمائله معا ومكن عشقها منه، ثم فرغه لها طوال حياته، فلم يعرف غيرها حتى ودعها مع الحياة في شيخوخته بعد أن عمر نحو ست وثمانين سنة، ولقد مضى القدر يعده لها باكرا حتى إذا أطاق حملها في صباه، حمله إياها وأعانه عليها، وأنماها له مع نموه، حتى ناله به ونال بها في نهاية شوطهما معا خير ما عندها وخير ما عنده.

وهذه الرسالة هي رسالة «العلم» بمعناه الواسع القديم في العربية واليونانية، أو رسالة «التعليم والتعلم» التي استغرقته، واجتهد هو في استغراقها فبلغ من ذلك غاية ما يبلغ وسع الإنسان، وما لإنسان إلى استغراقها سبيل.

وننظر إلى أخبار حياته جملة، أو نستقرئها تفصيلا ، فلا نرى له عملا ولا خلقا ولا نية ولا مسمى ولا هوى إلا وهو يمد إلى هذه الرسالة بعرق ينبض بدم الحياة،

obeikandi.com

ويعينها بكل ما فيه من أسباب القوة والتأصل والدوام، وكما يذهب الأستاذ التونسي: « فلو أردنا أن نصفه بكلمة واحدة وافية في الدلالة عليها وعليه لكفانا أن ندعوه «الحواري»، وإنه لمصداق قوي لما أثر عن النبي - عليه الصلاة السلام - في قوله: «**علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل**».

ولو أردنا أن نعرف من مثال واحد كيف ينبغي أن يكون «الحواري» خلقا وسيرة أو «العالم» الذي قدر له أن يتلقى رسالة نبي وينهض بها بعده - لكان الطبري مثالا وافيا له، بل هو أوفى «حوارييه» من كثير بين من ادعوا أو يدعون بحق: «حواريين».

ويذكر «ياقوت» في تاريخه أن الطبري قد رحل عن مدينته (آمل) في حداثته إلى غيرها من بلاد طبرستان طلبا للعلم، بعد أن أخذ منها ما استطاعت أن تعطيه، فطلب العلم في الري وغيرها من مدن طبرستان وقراها قبل رحلته إلى أقاليم أخرى، ولم يكن منذ حداثته يكتفي بالتلقي عن شيخ واحد إذا أطاق التلقي عن شيخين ولو بهظته المشقه مادام يطيقها. ومن أخبار حداثته - بطلب علم التفسير والحديث والتاريخ مع طائفة مثله في مدينة الري - ما حكاه من أنهم كانوا يكتبون عن شيخها الكبير محمد بن حميد الرازي، الذي يكثر النقل عنه في تاريخه قال: «كنا نكتب... فيخرج إلينا في الليل مرات، ويسألنا عما كتبناه، ويقرؤه علينا.. وكنا نمضي إلى أحمد ابن حماد الدولابي - وكان في قرية من قرى الري بينها والري فراسخ - ثم نعدو كالمجانين، حتى نصير إلى ابن حماد فنلحق بمجلسه . وبهذا العشق لرسالته أقبل عليها منذ الحداثة، مستهينا بالمشاق كسائر العشاق، وإن كلفته دلج الليل ذاهبا آيبا بين بلدين منقطعين يعدو هو وصحبه كالمجانين ويقال إنه كتب عن ابن حميد فوق مائة ألف حديث».

ومن التوفيقات : أن تدوم له معونة أبيه طوال حياته، فقد خلف له ضيعة كان رزقها يأتيه يسيرا، فأغنته عن السعي لتحصيل رزقه أو التعويل على أحد فيه، ومكنته

obeikandi.com

من أدوات العلم ومن الرحلة إلى معاهده في أمصار الشرق الإسلامية، فأخذ ما وسعه من شيوخ آمل والري ونحوهما في وطنه طبرستان، ثم شيوخ بغداد والكوفة والبصرة وواسط في العراق، وشيوخ دمشق وغيرها من بلاد السواحل والثغور في الشام، وشيوخ الفسطاط في مصر. ثم استقر في بغداد منذ أواخر شبابه حتى مات ودفن فيها سنة ٣١٠ هـ. وهو مكفي المؤنة متفرغ للقراءة والإقراء أو الإملاء والتأليف احتسابا لوجه الله، بعد أن كاد يستوعب كل علوم عصره الأصيلة القديمة والدخيلة المحدثة، وكلها كانت مستبحرة قبله وفي أيامه.

ولقد صار إمام عصره الذي كان من أحيا العصور في تاريخنا ثقافة وحضارة، وظهر علوم إمامته بين أعظم معاصريه حتى في حياته جماعة من بقية شيوخه ومن من طبقتهم سنا وعلما وشهرة، وشهد له أفضلهم بالتقدم، ومن هؤلاء المبرد، ومنهم شيخه في الأدب والنحو أبو العباس ثعلب الذي شهد له بحذقه في النحو وهو علمه المبرز فيه، حيث قال: «وهذا من أبي العباس كثير لأنه كان شديد النفس شرس الأخلاق، وكان قليل الشهادة لأحد بالحذق في علمه».

وكذلك يسجل ياقوت في تاريخه أن الطبري قد بلغ في عدة علوم شرعية وأدبية وكونية غاية ما يبلغ المختص في كل منها على حدة، مع سعة اطلاعه على غيرها، حيث قال مواطنه وكاتب سيرته «عبد العزيز بن محمد الطبري»: «كان أبو جعفر قد نظر في المنطق والحساب والجبر والمقابلة وكثير من فنون أبواب الحساب وفي الطب، وأخذ منها قسطا وافرا يدل عليه كلامه في الوصايا... وكان كالقارئ الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي كان لا يعرف إلا الفقه، والحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب، وكان عالما بالعبادات جامعا للعلوم، وإذا جمعت بين كتبه وكتب غيرها وجدت لكتبه فضلا على غيرها».

وقال في موضع آخر: «كان أبو جعفر من الفضل والذكاء والعلم والحفظ على مالا يجهله أحد عرفه، لجمعه من علوم الإسلام ما لم نعلمه اجتمع لأحد غيرها من

هذه الأمة، ولا ظهر من كتب المصنفين وانتشر من كتب المؤلفين ما انتشر له» ثم تحدث بتبحره في علوم القرآن والقراءات واختلاف الفقهاء وعلم اللغة والنحو والجدل والأخلاق وإحاطته بمأثورات شعر الجاهلية.. وقد وصفه غير هذا المؤرخ بمثل ذلك وبتبحره في علوم أخرى كالجبر والمقابلة والطب، ثم الفلسفة التي كان يحرص على ألا يعرف بها لأسبابه، وهذه الشهادة بين كثير مثلها وكلها تجمع على فضله وتبريزه، والإعجاب به، ولكن مواطنه المعجب – ككثير غيره – يقول هنا بقدر، ويقدم الأدلة عليه، من وراء ذلك كله كتبه التي تغنيه عن شهادات الشهود من أوليائه وأعدائه. وقليل ما بقي منها ومن أخباره ما يدل على أنه كان من أفذاذ الموسوعيين في العالم إلى جانب حظه الواضح من العبقرية وصلابة الشخصية.

وتظهر فيه خلائق «الحواري». وسيرته كما تظهر فيه ملكاته الذهنية مما يحتاج إليه الحواري منها، فيصفه مترجمه السابق: «بالزهد والورع والخشوع والأمانة وتصفية الأعمال وصدق النية وحقائق الأفعال» ويقول فيه أيضا: «كان عازفا عن الدنيا تاركا لها ولأهلها يرفع نفسه عن التماسها وكان – كما ينبغي للحواري – واضح البيان حاضر البديهة قوي العارضة عارفا بأخلاق الناس أفرادا وجماعات، متمكنا من فقه دينه ولغته، بصيرا بالكلام وذوقه، شجاعا في الحق لا يخشى فيه لومة لائم، فما راجت في أيامه بدعة مخلة بالدين أو الأدب العام – عنده – إلا نهض للرد عليها، ولا ظهر تنقيص لقدر أحد من صحابة النبي والتابعين أو شيوخا إلا بادر بالإملاء والتأليف في فضائله، فألف مثلا في الرد على داود الأصبهاني وناظريه فغلبه في بعض آراء «الظاهرية» ، وألف كتاب (فضائل علي بن أبي طالب في الرد على النواصب) ، وأظهر فضائل التابعين وفضائل شيوخه في كتابه (ذيل المذيل) للرد على ما تناولهم بالأصفار وكان كأبناء النعمة الصلحاء الأقوياء الذين يملكونها، ولا تملكهم ». قال مواطنه ومترجمه السابق ما نقله عنه الأستاذ التونسي : « كان

أبو جعفر ظريفا في ظاهره نظيفا في باطنه حسن العشرة لمجالسيه ، متفقدا لأحوال إخوانه، مهذبا في جميع أحوال نفسه، منبسطا مع إخوانه حتى إنه ربما داعبهم أحسن مداعبة، وربما جيء بين يديه بشيء من العلم والفقه حتى يكون كأجير جد وأحسن علم».

ولهذا ولغيره من أسباب .. اختير أبو جعفر الطبري واحدا من المجددين في الإسلام.

* * *